





4337
SPC
PQ
2286
A612
1940
RBL
البيوت
الكوفة

لنفيسكتور هيجو

تقريب

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم



الجزءان الأول والثاني

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال





اهداء

إلى الأستاذ الامام

انك موئل البائس ، ومرجع اليائس .. وهذا الكتاب
- أيدك الله - قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين .
وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسماه : كتاب
(البؤساء) ، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة
البالغة : (الرحمة فوق العدل) ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء
من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت
بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه الى مقامك الأسنى
ورأيك الأعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن
باسمك والتشرف بالانتماء اليك ، وثانيها ارتياع
النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل
الذي يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الأفهام ، وثالثها
امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء
ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق ..

فليتقدم سيدي الى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه
للدنيا والدين ، وأن يساعدني على اتمام تعريبه للقارئين

اللعقومة + جزء من

كلمة في التعريب الخاتمة

هذا كتاب « البؤساء » ، وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد ، ووضعه صاحبه وهو بئس ، وعربه معربه وهو بئس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرأة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه ..

ولولا أنني أشرب بالكأس التي كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصل مبلغ علمي الى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى في قطرة من سيول قلمه . ولو أن لي قلما من أعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى ، وقد تلقنتي البلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت الى لباب مصاصها ، وأخذت منها حاجتي ، لما حدثتني النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء ..

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم في الميقات ، وأستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى إذا نفذ الفكر الى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر الى مكان من حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت الى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت اليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج ، فاذا شمسيت احدهما وأزور جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن

الى أختها وترتاح الى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخول المروء بين الجفن والجفن ، وأمشى بينهما مشية الحكيم فى الصلح بين القوم والقوم ، حتى أثلف الذوقان وامتزج الروحان ، وضمت شمسيهما طفاوة ، واحتوت بديهما هالة ، وخلعت الأولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المعانى الافرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين ، وجنّدرها الذوق الشرقى ، وهى تسكن فى هذه المعانى العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شىء من مؤلفات ذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس الى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر ، الذى كنت بيننا أراه يسابح الاجرام فى أفلاكها اذا هو يدارج النّمال فى مدابها ، وبيننا ألمحّه بين ذروة العلم وشرفه القصر ، اذا هو بين قاع البحر وعميق النهر . فكم أفلت من هجرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمره القیظ فى صميم القائلة ، الى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقة ، الى التمشى بين نفس الحبيب وريقته

ولا يزال الكتاب فى كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفاتهم من الحكم والأمثال ، فيصدّحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح (١) المطر ، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الأقاصيص التى تدعو الى العظة ، وتصفح النفوس عن ركوب سبل الغواية

(١) أخرجها مثلاً . وكان من وساوس العرب - اذا خشوا سقوط المطر - أن يعمد أحدهم الى خيمته أو عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء أن يخطئ المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الضدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذي أعانى تعريبه اليوم
فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه
كما قال عن نفسه : مثل المنجم الذهبى لا تصل الأيدي الى
تبره حتى تكاد تحصى ثراه عداً

وقد خار الله لى أن أعربه ، فاستعنته فأعاننى ، واستهديته
فهدانى ، وسلخت اثنى عشر هلالاً فى تعريب تلك الصفحات
التي ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التي
قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال ، الذين
تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطها من الاتقان ،
والبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة ويرضاه أبناءها
أرايتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وانت
تذوق حلو تركيبه ، وتستمرىء لذة أسلوبه ، أن عبد الله
ابن المقفع قد عربه عن الفارسية ، لو لم يصل خبر ذلك اليك ؟
فسقيا لتلك الأقلام التي عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت
وواها لهذه اللغة التي أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها ،
وعربى يعمل على كيدها ..

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التي تترجم اليوم ، رأى
هذه العادة الشرقية وهي على فراش موتها تنذب خدراً قد
ابتذلتها الأقلام ، وسترا قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها
فى بطون هذه الكتب قبوراً ، وخاطوا لها من تلك الصحف
أكفاناً ، وهياؤوا من هذه الأقلام أعواداً ، وما هو إلا أن يثنى
ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع الى جنازتها أهلها وذوو
قرباتها ..

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ،
ونسلمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم ان هذا خذلان
منك فأدر كنا برحمتك وهيئ لنا من أمرنا رشداً ..

أىكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من
فحول البلاغة وملوك الكلام ، وأنا لا أعرف من هذه الزهور



شاعر النيل : محمد حافظ ابراهيم

قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف
قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات
إلا ما وقع تحت نظر العرب في تلك الجزيرة الجرداء ،
وما سمت إليه حضارتهم في عهد الدولة الأندلسية ؟

أي رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأي غيث سقاه ،
وجو حواه ، حتى أدخل في لغته من الكلمات ما بخطئه العد ،
ووقف في وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور في وجوه
الطامعين في هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليس
رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك
الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهم . . أيدعي البعير - وهو ذلك
المركب الخشن - بهذه الأسماء التي تضيق عنها بطون الكتب
وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفا
في هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربي
الذي يقول في وصف عيشه :

الابيضان أ بردا عظامي الماء والفت بلا ادام (١)
وهو فوق راحلة طالع على قتب يكاد يدمى عجاناه تحت
شمس لا تكاد تأكل ظلها في مفازة

تمشي الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد
إذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول
وسرد من الوصف ما يبلغ حد الإعجاز ، وأردتنا على أن
نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر
الخوان ، ونتبوا أريكة « الأوتومبيل » تحت ذلك الظل
الظليل ، في مخارف (١) ضفاف النيل على فراش وثير ،
ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك

(١) تقول العرب : الابيضان عن الماء والفت ، والاحمران عن اللحم والخمر
(٢) جمع مخرف وهو المنتزه

المركب الذلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا
أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ،
ولا مرادفا في اللغة يؤدي معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا
كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه .
وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله
مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما
آمنين



كلمة للمغرب في المؤلف

ولد « هيجو » والقرن الغابر صبي في مهده لم يدرج من جحر أمه ، ولم يفرق بين أمسه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين فاذا الأول سيد القرون ، واذا الثاني نادرة البطون ، هذا يمشى على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدى بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الأول على سرير دولة الأيام ، وأخذ الثاني بصولجان دولة الأقلام ، فالتقت دولة العجب ، بدولة الأدب ، واجتمعت بدائع الاختراع ، ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتد من المغربين الى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المدنية

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات - وهي في عالم السديم - أن سيرتقى بها الحال الى العيش في هذا النعيم ؟ فتبارك الله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم

ولد هيجو واللغة الفرنسية بمنزلة بين الضعف والحاجة ، والقوم بين أسر التقليد ، وذل التقييد ، والأدب لم يبق منه الا الذمء ، فأنبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه الى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، ورفعها الى المجمع

العلمى فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ،
ولولا أنه كشف عن سره ، وأوضح عن بيان عمره ، لأجزأوا
ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ،
فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه ، فظنوا أنه يسخر منهم ، فلم
يجيزوه إلا يسيرا . وهبت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية
القوافى ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح في ملكوته ما شاء
الفكر ، وما زال يتنقل في تلك العوالم الخيالية حتى نودى به
أميرا على دولتى التنظيم والنشر ، وشجر بينه وبين جماعة
الشعراء الخلاف ، فأرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى
غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم ،
ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه
الطبيعة بجمالها

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحه من سجن التقييد
وقد وقف إذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فإذا
فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضائل الحسنة
تحت الأطمار ، لأخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر
الرومان واليونان فيما وضعوه من الأقاصيص التى تمثل
أدوار تلك الأزمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا
بما ينقع الغلة ، فانبرى الى منازل أولئك المقلدين ، وقامت
بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام ، وأدارت رحاها الأفهام
فما زال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى
خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه

ولاحت بعد ذلك تباشير الإصلاح فى سماء الأدب ، وظهر
كتابه الذى سماه نتردام دوبارى Notre Dame de Paris فطلع
على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيه
اللفة جنودها من الألفاظ والمعانى ، فاستعرضها صفا صفا ،
وتفقدتها حرفا حرفا ، ثم أبرزها الى ميدان التحرير على
أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها
كما يوفق القائد الخبير

ولما قضى من الأدب لبانته ، وأخذ من الشعر حاجته ،
هجر الشعر الى السياسة ، وما هي الا جولة من جولات الفكر
حتى دعتة السياسة الى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل
استهواء الأفتدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها في
اكتشاف ما يستكن في قرارة النفس وخلجات الفؤاد

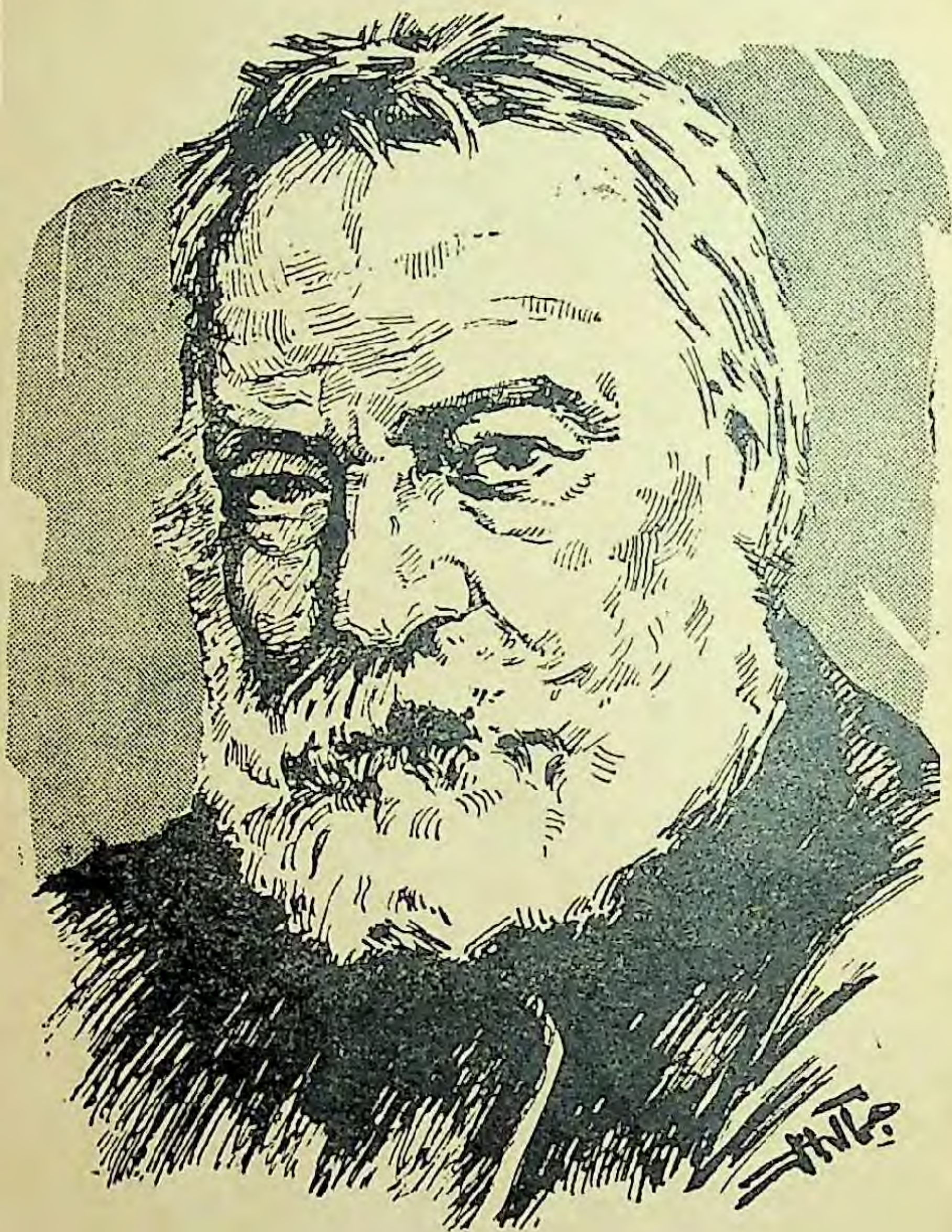
وبلغ هيجو من السياسة كوكبها (١) ، فركب سفين
الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفي به من بحر الى بحر ،
وترمى به من عبر الى عبر ، وهو على ظهرها يطالع في افق
الدهاء صحيفة الرجاء ، وقد وضع أمامه ابرة الأمل ، وجعل
وجهته قطب العمل ، حتى بلغت شاطئ آماله ، وحمد مغبة
أعماله

وما كاد يتنسم الأفرنس نسيم الحرية حتى هبت ريح
الاستبداد من رقادها ، وصفت من جوانب العرش المالك ،
فاحتملت هيجو على اكتافها واندفعت به ، حتى اذا بلغت
سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك في منفاه
الجديد

فنزل الرجل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق الى
عزمه الخمول ، وغادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها
أو يهبط عرش الملك فيها ، وبرت يمينه . . فانه لم يطا
أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان في حرب السبعين

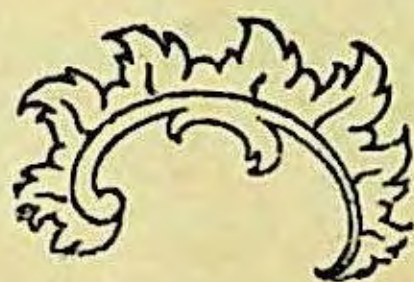
ولبث هيجو في منفاه ، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته
فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضع كتابه
الذي سماه «نابليون الصغير» ، ونظم بعده كتاب «العقوبات»
فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان
عليه أشد غضاظة من تسليم سيفه الى يد عدوه في يوم
خذلانه

(١) كوكب الشيء معظمه



فيكتور هوجو : مؤلف البؤساء

وجاء ذلك الكتاب مثال ما يملئ الحق على القريحة ؛
وتوحي الموجدة الى اليراع ، ووضع بعده كتاب « المشاهدات »
وكتاب « البؤساء » الذي نعربه اليوم ، وكم له غيرها من
مؤلفات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه في صباه
« كأوراق الخريف » « وأناشيد الشفق » ، ومنها ما وضعه
بعد عودته الى الوطن ككتاب « العام الأسود » ، ومات هيجو
وهو نادرة الفلك ، وواحد عطار

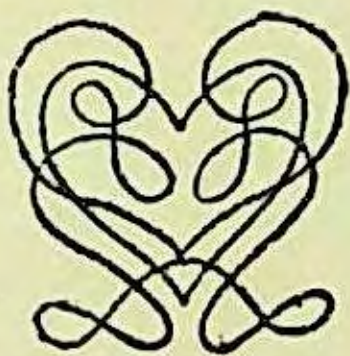


كلمة للمؤلف في البؤس

مثل البائس الذي سجلته يد المقادير في سجل العناء ،
وطوحت به في ظلمات هذا الوجود ، فمضى يتخبط في
ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشي على أثره الشقاء ،
تلعب به الايام لعب النكباء بالعود ويدب في نفسه اليأس
ديب الآجال في الاعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج
في يوم ريح صرصر عاتية ، قلبت معلقا في خيط من الاجل
تحت شقى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين
قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر
ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه
اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر في كفن من الزبد ، وحمله
على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال ، تعلو به تارة
الى مجرى الافلاك ، وتسفل به أخرى الى مسبح الاسماك ،
حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت في وجوده الأرض والسماء ،
وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء
فجعل يجالد تلك الامواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار
العنيد ، حتى اذا نزع التعب قواه ، طواه البحر في جوفه
طى السر في الفؤاد : ذلك مثل البائس في هذه الحياة الدنيا
أما ذلك المجتمع الانساني فمثله كالسفين أخذت في ذلك
الخضم مجراها ، فانحطت عليها الاعاصير واصطلحت عليها
الانواء ، وألقت بها في تلك اللجج التي تضل فيها الظنون
والاوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح



فيها الخيال فيفترق ، اذا تدجبت فهي ليالى الشقاء ، واذا
ثارت فهي براكين الماء . ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ،
الى حيث هذا الفريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها
اليه مرة بالنداء وأخرى بالايماء ، لتستل حياته من يد الأجل .
وكلما صاح ذهب بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام
بينه وبينها سد من الأمواج ، فهي لا تسمع نداءه ، ولا تنظر
ايماؤه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين



الجزء الأول

الفصل الأول

جان فالجان

أشرف على مدينة (ديني) رجل يضرب في الأرض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان (١) النهار واكتهل اليوم الأول من شهر أكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما أدركها حتى أخذ منه الجهد وأعياء النصب وأمله طول الشقة (٢) وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع في منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة اليه تدعو الى الريبة فيه . لذلك ما نظره أحد من سكان تلك المدينة ومرت به خلجة شك في أمره

وكان ربة في الرجال بادنا (٣) شديد الحول يضرب لونه الى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدا بالمقراض نيفت أعوامه على الأربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب (٤) خرجا ملأه بحاجه ولبائاته

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه - وكذلك ينكر ابن السبيل - وأخذ سمته الى دار المشيخة ، فمضى (٥) قدما في إحدى سبلها ، حتى اذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه

(١) مالت الشمس الى الغروب . (٢) السفر الطويل . (٣) ذو البدن السمين . (٤) أى حمل . (٥) أى سار الى الامام



فصهر (١) الجندى خده وتثاقل في رد تحيته ، فمضى الرجل في طريقه ونظر الجندى يترسم (٢) مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده

ولعله كان قادما من الجنوب - فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذي ركبته نابليون الأول قافلا من (كان) الى (باريس) منذ سبعة أهلة - وكأنه منذ أصبح ما تبلغ (٣) فما هو إلا أن أفلت من دار المشيخة حتى تيمم النزل ، فلما دلف (٤) الى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد أحس بقدومه وان لم يمد اليه بصره : « ما سؤل الطارق ؟ » فقال الرجل : « أكلة ونومة » ، قال : « لك سؤلوك » ثم التفت اليه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : « أو تصل يدك الى وفاء حق ما تطلب ؟ » فضرب الرجل بيده الى جيبه وأخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة (٥) ما بداخله ، وجلس الى النار يصطليها - وقد كان مقرورا (٦) وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر في الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود في يده حتى كاد يأتي عليه (٧) الجوع فصاح بصاحبه : « اما آن ان آكل وليس هنا من هو أحوج منى الى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟ » فقال له رب النزل : « انى ليحزننى ان تنصرف عنى وانت طاو ، فلقد سبقك الى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم ، وما منهم الا من هو أحرص منك على الطعام » فقال الرجل : « لن أبرح الأرض حتى أصيب ما أتبلغ به ، فلقد سائرت الشمس من شروقها الى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى ، ومن العجز أن أبتفى عنه حولا » . فقال له صاحبه وهو يحاوره : « لقد

(١) شمع بأنفه وتكبر . (٢) ترسم الاثر اقتفاه . (٣) تبلغ أكل الخبز .
(٤) دلف مشى . (٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .
(٦) المقرور الذى أصابه القر وهو البرد . (٧) أتى عليه أى أهلكه



بالفت في محاسنتك كي لا أجبهك (١) بالرد ، وكرهت أن أجمع
عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع فأبيت إلا الإصرار
فاغرب عني أيها الرجل ولا تلحف (٢) في السؤال فأنا أعلم بك
منك ولو شئت لزدتك فقد زهدني فيك ما أقرأ عنك في
تلك الرقعة التي تراها بيدي وصاحبها لا تغيب عنه
وساوس صدرك وانك لقريب العهد به ، ذلك رب الدار التي
عرجت عليها حين أحلتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك
ما سمعت يا جان فالجان « فعالج الرجل الكلام فاستعصى
عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده الى متاعه فاحتمله
وخرج يتعثر في ذيل الخيبة ، وركب الطريق الأكبر ومضى
على وجهه يقتاده القضاء والقدر

ولو أنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه
أبصارهم ، وما منهم إلا من قاف (٣) أثره بنظرة من الشك
ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين الى تلك
اللفتة التي تريحه النحس على عقبه ، فواصل السير وقد
أنساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه
هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكاناً
يعصمه من القرة (٤) ويزود عنه الطوى ، فما زال يتيامن
ويتياسر حتى لمح ضوءاً فقصده فاذا هو على باب نزل حقير
فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوف يمنعه ، حتى
صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصر به
ربها ، صاح من الطارق ؟ فقال الرجل ، عابر يطلب قوتا
وكنا ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا
ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القثار فكادت تثب
أحشاؤه الى القدر ، فقال له صاحبه : « دونك النار فاصطل
ريثما ينضج الطعام » . فانتحى ناحيتها وجلس اليها ومد
أمامها قدمين أدماهما التعب

(١) جبهه بالرد واجهه به . (٢) الحف في السؤال أى ألح . (٣) قاف
بمعنى اقتفى . (٤) القرة البرد



وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه
فقد نظروا رجلا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا
إذا امررت عليه النظر إمرارا رأيت فيه سهولة السطيع ،
وإذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهار
وقد ركب الطريق بين (براسكاس واسكابلون) فراه أمره
حين دنا منه وهو فارس فطلب إليه ذلك البائس أن يردفه
لينفس عنه كرب السير فكان جوابه أن أستحث جواده
هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس
بين أولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الأول وقوفا
يشيرون ذلك الطريق بنظرات تقعد همة (الفوتوغرافيا)
عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس
الذين رآبهم أمره في النزل الثاني ، فأومأ إلى رب النزل فلما
دنا منه همس في أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم
فانفتل إليه ، وقال له : « ما كان أخلقك بالتحول عن هذا
المكان » فأجابه الرجل : « أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟ »
قال : « نعم وسنشفعها بأختها » فاستقبل الرجل الباب
ولما صار بالطريق إذا هو بصبية يرجونه بالمدر وقد تعقبوه
منذ هبط المدينة ، فخشي أن يصيبه عنت منهم إن هو
تغافل عنهم ، فأشار إليهم بعصاه يوههم بالاذى ، فنفروا
عنه نفور القطا ، فانطلق حتى إذا صار أمام السجن خطر له
أن يأوى إليه ليلته وقال لن أجمع على نفسى بين الجوع
والسهاد ولقد أرانى إلى الراحة أجوع منى إلى الطعام وهذا
جو خليك أن يهلكنى قره ولن أعدم أن أجد فى هذا السجن
مكانا يعصمنى منه

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجنان :
« من الطارق ؟ » قال : « غريب لا مندوحة له عن الالتجاء
إلى السجن » قال : « ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فان

كنت أمسيت وقد أعياك الأمر فهذا باب اقتراف الجرائم
 لا يزال مفتوحا وهو لا يلبث أن ولجت فيه أن يقتادك الى هنا «
 فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ،
 وتغلغل في المدينة فمر في طريق ضيق على عطفية حديقتان
 عليهما سياج وفي وسط احدهما دار صغيرة تعلو الأرض
 بطبقة ، باحدى نوافذها سراج يضيء الليل فما هو الا أن رآه
 حتى أسرع اليه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فاذا رب
 الدار بين زوجته وولده وهو أهنا ما يكون بالا ، فقال استضيفهم
 فلعلني أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه
 ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر اليهم
 الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفرع ونقر نقرة مطمئنة ،
 فقالت المرأة لزوجها : « كأنني أسمع نقرا على زجاج النافذة »
 فتسما جميعا فسرى اليهما الصوت فقام الرجل الى السراج
 فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تدعر منه
 الابالسة ، فقال رب الدار : « من الذي أرى ؟ » قال :
 « غريب يستضيفك ولك الحكم في الاجر » ، فقال له وقد دب
 الشك فيه : « أن كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما
 منعك أن تغشاها » ، قال : « غشيتها فلم أجد فيها مكانا »
 فقال له وقد تملكه الشك : « ان ما تقول لشبيهه بالباطل
 وليس هذا بابان المواسم ، واني لارى رجلا غير ميمون
 الطلعة ولقد راعني منك ما يروع المرء من قاتله وكأنني أسمع
 صوتا يقطر منه الدم وأكبر ظني أنك ذلك الرجل » فقال
 له : « لا تعجل في الحكم على ما ليس لك به علم ، فما
 نا الا ابن السبيل قطعت في يومي اثني عشر فرسخا وقد
 أجهدني الكد والنصب بدني التعب وأخذ مني الطوى ، فهل
 لك في أن تسعفني بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فان
 لم تفعل ، فشربة من الماء ؟ » فقال : « بل شربة من حميم »
 وأغلق في وجهه الباب ، فوقف الرجل وقد كاد يأتي عليه
 اليأس لولا أن بصر في ضوء الشفق بشيء شبيهه بالكوخ في

وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : « ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتية فلعلنى أجده خاليا فأفنى فيه دولة الظلام واستجن (١) فيه من ذلك البلاء المتساقط » فقصده فاذا هو وجار (٢) لكلب وقد غاب عنه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لا يزال على ظهره ولم تقو يده على ازالته لفرط ما ناله من الآين والنصب ، فلبث قطعاً من الليل وليس به حراك حتى اذا أمله حمل ما على ظهره عمد الى نزعها فأخذ يعالجه بيده ، وانه ليفعل ذلك اذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق أن يثير غضبه بتناقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو في ذلك المضيق لا يستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو أشد ما يكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول الى السجون وعزت عليه حتى مراقب الكلاب

فلما صار في الطريق قال : « لقد قصدت الفنادق فزادوني عنها - فالتجأت الى السجن فكذلك ، فاستضفت الناس فكذلك ، ولقد زهدت في حتى الكلاب ، فليس لى الا التحول عن هذه المدينة »

ثم سار مقنع الرأس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحي متهم الصباح فانطلق حتى اذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فاذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد في ظلام الليل ما تلبد في سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الارض . فانقلب الرجل على عقبه وأم المدينة وكانت ذات سور وأبواب فرأى الابواب وقد أغلقت فحاول التسور فأعياه الأمر ، فما زال

(١) استجن أى استتر . (٢) الوجار الحمر



يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فيه فانحدر منها الى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الازقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعدا من الحجر فسقط عليه لا يعي من فرط التعب واضطجع عليه . وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجدع : « ما خطبك أيها النائم ؟ » فقال لها : « وهل يدعو ما أنا فيه الى السؤال ألا ترين انى أنام ؟ » فقالت له وقد أخذتها رافة عليه : « أتفترش الصخر ؟ » قال : « مر بي تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الاخشاب ، وأنا الليلة أفترش الصخور ولولا اننى صفر اليدين لا كتريت لى مكانا . على اننى طرقت الأبواب فلم أظفر بكريم » فقالت : « هل أدلك على بيت ما طرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟ » ، وأشارت له الى بيت صغير على كذب منه فأخذ الرجل سمته اليه



وكان هذا البيت لعابد بمدينة (دينى) وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب بابا قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ ما فيه أن الرجل مسماح كريم عفيف الازار طاهر المهـد سريرته فى بياض صحيفته فعال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لا عجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الاسنان تعد من العمر ستين عاما

وبينا كان الرجل آخذا طريقه الى ذلك البيت كانت كانت الخادم تحدث مولاتها :

« لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد الا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الاندية وولج الاخبية وأجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى

وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلي هذا الليل الا عن
حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليل في الازقة
والطرقات حتى اذا عن له صيد أو آنس من أحد غرة وثب
عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن في هذا البيت أن
يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس في
الأمور الى هذا الحد الا لما أمسكه حاكم البلد في نفسه من
الضعيفة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة في
صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما القاء تبعة
الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من
العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر
فترة الشقاق بينهما وأنا غادية الى السوق لشراء مزلاج (١)
لهذا الباب وداعية أحد النجارين لاصلاح عضادته «

وانها لتحدثها كذلك اذ دخل سيدها وقد ألم بطرف من
الحديث ، فنظر اليها نظرة المستطلع ، وسألها سؤال
المستخبر : « لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون
تلك النازلة التي توشك أن تحل بنا ؟ » فاندفعت الخادم
تحدث مولاهما بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست
منه ارتياحا الى حديثها تغفلت في الاغراق واسترسلت في
المفالة وقالت : « ولقد عود مولاي طراقه على الدخول في
هذا البيت قبل الاستئذان ، وقد علموا منه ذلك فهم
يفشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب ! »
وما كادت تنتهي من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد :
« أتيت أهلا أيها الطارق » فاندفع الباب بعنف ولاح رجل
على عتبة الدار وأخذ يخطو الى صحنها بقدم مطمئة وصدر
لا يبرحه القلب . وأن عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو الا
أن تراءى حتى كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت
بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاعرة الفم غائبة الرشد .

(١) الترباس عند العامة



أما الاخت فقد حفز الخوف أحشاءها حفزا فنظرت الى أخيها فاذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا ، فثاب اليها رشدها وعاوذها السكون ومررت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، وأما ذلك الرجل ، فقد وقف في صحن الدار وأنشأ يقول :

« اننى مجرم طويت في السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهرا حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق على شمس الحرية الا منذ أيام أربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بينى وبينها تلك الورقة الصفراء التى يحملها حديث العهد بمغادرة السجن ، فطرقت الابواب فلم أصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيمًا . فقلت آوى الى السجن ، فأنا أقرب الناس عهدا به فنهرنى السجن ، فدلقت الى وجار كلب فطار دنى حتى طردنى ، فقلت أنطلق الى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنها عافت النظر الى تلك الطلعة المنحوسة . وأشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا الى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الارض ولا فى السماء ، فحالت بينى وبينها الابواب حين بلغت ، فما زلت أطوف بالصور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه الى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فاذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه ، وانى لكذلك اذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت اليها جملة الحال ، فأرشدتنى الى هذه الدار ، وها أنذا قد بلغت . ولقد عودنى الشقاء على أن اجتزىء بالشربة وأكتفى بالكسرة ، فهل أنا مصيب عندكم ما أمسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وأنا راكب هذين النعلين ، فان فعلتم - وما أظنكم تفعلون - - فلکم ما تشاؤون من الاجر ، فانى على الدفع قدير ! »

فنظر العابد الى الخادم ، وقال لها : « هيئي له مكانا على المائدة » ، ثم أخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن يستشف ما في قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى اقترب من السراج وضرب بيده الى جيبه فانتزع منه تلك الورقة الصفراء (اجازة الاطلاق) وكأنه لم يصدق أذنه لقرب عهدا بسماع غير الذي سمعت ، فالتفت الى العابد ، وقال له : « دونك الورقة التي ما صحبتني الى مكان الا سبقني النحس اليه واني لأتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة في مدرسة السجن » . وأخذ يتلوها :

« ان جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعد أن لبث في السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقي جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وانه لفتاك جسور »

ثم قال :

« لذلك تراني ما خللت في مكان الا وأنكرني من فيه وأوجس خيفة مني فياليت شعري أكذاك تكون معي أم أنت من المحسنين ؟ »

فنظر العبد الى الخادم وقال لها : « مهدي له سريرا » وخاطب الرجل قائلا : « نزلت رحبا فاجلس الى هذه النار واصطل وما هي الا لحظة حتى يحضر الطعام فاذا فرغت من تناوله أخذت مضجعا في ذلك السرير » . فصدق الرجل في هذه المرة أذنيه وأشرق أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور الى الهديان فجعل يقول : « أسرر وحشية وغطاء وما لجنبي عهد بها منذ تسعة عشر حولا ؟ ولقد كان قائما بنفسي أن لا أرى منك غير الذي رأيت من أصحاب الفنادق ، فما بالك تبالغ في محاسنتي كأني بعض بني الانسيان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله

لاضاعفن لك الاجر . فيا ترى ما اسم هذا النزل وكم ينبغي ان ادفع ؟ »

فقال العابد : « ان الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ، ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك » فقال الرجل : « لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح اشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسرا ، فانت حقيق بمؤاساة البؤساء »

ثم رد الرجل ورقته الصفراء الى جيبه ، وألقى على الارض متاعه وأسند الى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : « ولا أخالك تكلفنى على ذلك أجرا » . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : « لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة الى شئ منها »

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلاً : « ولعلك ياسيدى مقرر ، فان ليلتنا باردة الهواء » فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت لها روحه من داخل الجسد ، وأصابته منه تلك اللفظة (سيدى) موقع الماء من ذى الغلة الصادى ولا يزال المصاب فى شرفه على ظمأ الى نهلة من موارد الاحترام ، حتى اذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل

وانتقل العابد من حديثه الى مخاطبة الخادم فقال : « ارى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور » . فألمت بقصده وأسرعت الى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة

فقال الرجل للعابد : « لقد أكرمتنى الكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساط المساواة ، على انى لم اكتمك شيئاً من امرى وعندى ان ما فعلت معى لكثير على مثلى » فقال العابد : « لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنا من كان عن اسمه ،

ولكن يسأله عن ألمه وأنت رجل قد أضر بك الألم ونال منك
الجوع والظما ، فالتجأت الى تلك الدار وليس لى فى ذلك
من فضل ، وانما الفضل لله فهيا الى المائدة فقد حضر
الطعام »

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس اليه العابد يؤاكلة
ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف الى
النوم فأخذ بيده الى المضجع الذى هياه له ومر فى طريقه
على حجرة العابد ، فنظر فيها نظرة أمت بجميع ما بداخلها
وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ،
فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين ثم انساناهما
عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد
شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى
الصدور : « وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتنى
بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟ » . فأجابه
العابد : « ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئا وهذا أمر قد فرغ
الله منه ؟ »

ثم غادره وانكفا الى مخدعه ولم يلتفت اليه . وبعد أن
قضى فيه صلاته تحول عنه الى البستان وأخذ يطوف فى
نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر
فى تلك الاشياء المستسرة فى ضمير الدجى

أما الرجل فما صدق أن يتوارى عنه حتى أهوى الى
السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك
وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى
انقلب العابد الى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى
هذه الدار عين ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتهل
الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !



وقد آن أن نسطر للقراء تاريخ ذلك الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل في الأرض
 ببلدة (برى) وكان أبوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة
 سواها فتربى هذا البائس في معهد الجهل ، فلم يجلس الى
 مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر قدما
 جهولا . ولما يقع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل
 التفكير عن غير حزن ، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه
 محمومة ومات على أثرها أبوه . . هوى من رأس شجرة كان
 يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من
 البنين والبنات فلم يزل مكفى المؤونة عندها حتى مات
 زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ في الثامنة
 من عمره فلم ير جان فالجان بدا من القيام بمعاش أخته
 وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح في طلب الرزق
 وأجره في أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صليدا ،
 فاذا انقضت تلك الأيام انطلق الى جماعة الحاصدين في المزارع
 فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الأيام ويناضل
 البؤس وهو لا تصل يده الا الى ما تدعو اليه الحاجة لحفظ
 الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها
 الناس عن الخروج في طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل
 املاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحضره العوز ، فأمسوا
 ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة
 الاطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط
 الطوى . فكبر الامر على جان فالجان وغادر الدار وخرج
 هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق
 حانوته وتهيأ للنوم في مخدع له بداخلها ، وكان بابها من
 زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من اثنائها الساعد
 فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فاذا رغفان الخبز على
 قيد ذراع منه ، وذكر أمر القلعة فساقه قائد الاضطرار
 الى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب



الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده الى الخبز . وانه
ليحاول اختلاسه اذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا
على دوى تلك الصدمة . فتخبل الرجل في أمره وطرح الخبز
وأخذ يعدو طلبا للنجاة . وطفق يعدو والخباز على أعقابيه
حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج في يده
وساعده خدوشا كانت هى الشهود على جريرته ، فسيق
الى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد فى الغابات مدمنا لحمل
بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم انه
بعض خلفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم
دينى رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا
هذا البائس قسطه من الاذى وزجوا به فى السجن خمس
سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتيوت كان جان
فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة
طويلة الذرع . ساروا به الى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا
على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا توأسيهم يد
ولما وصل الى السجن البسوه ملابس المجرمين ولم يبق
له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح
لا يدعى بغير نمرة ٢٤٦٠١

ولا يعلم الا الله ما الذى حل بعده بتلك الارملة وأولادها
وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع
بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا
نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط
الجوع وتغلغل فى ظلمات هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك
الظلمات من البؤساء وتشنتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر
ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه أنساه
اياهم كره الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء
ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير



مرة وقد نقل اليه بعضهم طرفا من خبرها بعد أن لبث في السجن بضع سنين لا يعلم من أمرها شيئا ، نقل اليه أنه رآها بمدينة باريس تسكن البؤس في دار ولم يبق لها من أولادها غير واحد وقد انقطعت الى العمل في إحدى المطابع فنظرها وهي مبكرة اليها وفي يدها ولدها وقد بلغ الرابع من عمره ، وكانت في دار المطبعة مدرسة للأطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهي تغدو به كل يوم اليها وتتركه في فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق لمزاولة العمل في المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فلبث ذلك اليتيم في فناء الدار وحيدا فينزوي في ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضض من البرد وفي عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه الى كنه حتى يفتح باب المدرسة

هذه هي المرة التي سمع فيها بذكر أخته وألمته ذكرى تلك النفس التي كان يحبها ولكنه ما لبث أن عاد الى حاله من النسيان فقد كان في قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور في الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تماالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب ، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما في فضاء تلك الحرية الموهومة لا يهتدى الى سبيل

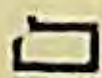
ولم يستمرىء ذلك البائس لذة الاطلاق والحرية ، ومتى كان حرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزوع الضمير ، طاوى الحشا يفرق من الفء ، ويفزع من لاشيء يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوة تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساه أن يكون قد مد له من

الشراك ، ويزعجه النهار يغري به الرقباء ويهدي اليه
العيون ؟ فهو ما مر به طير الا وفزع ، ولا نبحه كلب الا وجزع ،
ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر
له لبه ، فاذا أغفى سلت عليه سيوفها الاحلام ، واذا تيقظ
راشت اليه سهامها الاوهام

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى
سلمه ظلام الليل الى ظلام السجون غرثان ظمان لم يصب
في يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام
سجنه الى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه
قشيب جديد بعد أن كان خلقا رديما ، وقد كان غادره
ولم تبق له فيه الا سنة واحدة وعاد اليه وقد ولدت له تلك
السنة ثلاثا

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة اذا عرضت ولا
يحجم عن الدور اذا آن ، وهو كلما ظن انه ناج أدركه عثار
الجد فرده الى السجن ومد في أجل بقاءه فيه حتى قطع
على تلك الحال تسعة عشر حولا

وخرج من السجن ، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه
النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد أن كان ذلك الرعديد
الهلوع ، دخل فيه وهو بادي اليأس جزوع ، وخرج منه
وهو كظيم



وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه كان فدما جهولا على انه
ما لبث أن تلقن في مدرسة الدهر العليا دروسا ألحقته
بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الايام والليالي
فعلمه القيد السكون ، وعلمته الاغلال الصبر كيف يكون ،
وأرشده قرع العصا الى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب

مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبه ذلك
الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان في نفسه من الجشع
فجلس الى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على
نفسه ، وجعل ينظر الى ماضيه نظرة الحكيم العاقل ، الى
ضلالة الاحق الجاهل ، فعلم انه اتى أمرا نكرا ، وان ما نابه
من القصاص خلّيق أن يحل به . وقال في نفسه لقد كانت
لى مندوحة عن السرقة فلو انى سألت الناس هذا الخبز لما
أبوا على اعطائه ، ولو انى أخذت بالأناة في الأمر لوجدت لى
منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، أما بالسؤال وان كان ذلا ،
وأما بالعمل وان كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الاخلاق
بى أن أعتصم بحبل الصبر

فمن النور أن يموت المرء جوعا على أنه ما خلق الا ليعيش
بين السعادة والشقاء ، فان كان نصيبه في الحياة الالم كان
حقيقا باحتماله وان عظيم ، فما كل ألم يكون للموت رائدا
فلقد عقلت نفسى وعقلت تلك الارملة وأولادها وحاولت
الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، وانى وان زلت بى
القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم
ولا أزال أرى انهم نظروا الى هذا الجرم من غير وجهه
فأكبروا الفعل وأفرطوا في العقاب وأخذوا جانب شريعتهم
في القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم في الرحمة ونظروا في
ميزان حكمهم الى كفة الجزاء ولم ينظروا في كفة العفو عند
التوبة

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها في
مجرى النحوس ، وتلك الانفس التى ألقوا بها في يد البؤس
والشقاء

وانى لا أرى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز
وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فانه وان لم
يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والافراط

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشده ، واقد يكون الحنق جنونا

وما ظنك أيها القارىء برجل لم يصب من ذلك المجتمع الانسانى خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان الا ليدنى اليه اذاه ولا مسه انسان الا ليمسه منه الضر ، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة

فما زالت تهادى به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن ان الحياة حرب وانه وحده هو المهزوم فيها ، وان ليس ما يعتد به من السلاح غير ما أمسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمناوأة الايام ومنازلة الانام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ فى الحرص عليه ، وقد رأى ان قوة ذلك السلاح لا تكون الا فى قوة الذكاء ، فعمد الى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلوم بعض الاذهان الى استنباط وسائل الاذى وطرق الانتقام

وبعد أن فرغ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل الى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم الى فعل الشر وكان بقاءه فى السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت أثقال الهموم يسمو بنفسه آنا الى السماء ويهبط بها آنا الى الارض ، فىرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجل خبيثا عند دخوله الى السجن ولكنه أحس بسرمان الخبيث فى نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بديب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية

وهنا يجب أن يقف بنا التأمل برهة ونتساءل : هل يدخل



في باب الامكان أن يخرج الانسان من طباعه دفعة واحدة ،
فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلته
وينزع عن سجيته

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة
التي جبلت عليها ، فيرد منها الى الخيانة ما فطر منها على
الطيبة

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس
فاذا حقق حظ المرء ، ولج به عثار جده خبثت نفسه وساءت
فعاله

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضوع الاعضاء
فتدعوه الى الانكماش أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور
الى الانحناء ، وهل لا يوجد في نفوس البشر نور سماوي
لا يذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا
في تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه أشعة
الهدى

تلك أسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث
في علم الاعضاء عن الاجابة على آخرها ، فلو انه نظر جان
فالجنان وهو في سجن تولون ، وقد وافقت ساعة الراحة من
عناء الاشغال ، فانتقل من ألم الجسم الى ألم الفكر لرأى
رجلا يقطر حزنا ويدوب كمدًا ، يزدهيه الصمت ويفوص به
الفكر في بحار من التأمل . أنشبت فيه الشرائع أظفار الظلم
فجعل ينظر الى العالم بعين الحقد والحرد ، وأخرجته المدنية
عن حد الرحمة فجعل ينظر الى السماء بعين السخط

ورأى مريضا داؤه في النفس لا في الجسد ، وقد عز عليه
الشفاء . ولو وقف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره
عن تلك القروح التي تسكن في هذه النفس المجروحة بسهام
الشرائع الجائرة

ولرأى رأى ذلك الفيلسوف (دانتي) فعمد الى محو كلمة
الامل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر

وياليت شعري أكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان
الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه الى معرفة كنه ذلك
الشقاء الذى أتيح له

ولما حانت ساعة اطلاقه من القيود ورن فى أذنه قولهم له
انك حر منذ اليوم ، دبّت فى نفسه الحياة وشعر بأشعة من
الامل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذى سكن فى نفسه منذ
تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الألم حين
علم ان اطلاقه سيكون مشفوعا بتلك الورقة الصفراء وانقبض
لتلك الجولة من الفكر وجه أمله ، وأيقن انه لازال فى قيد
لا تصل يده الى صدعه ، وان هذا الحكم قد وكل به زبانية
من العذاب ، فهو فى أسر السجون مثله فى تلك الحرية
الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء

وأخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما
كان يصيبه من الأجور على عمله فى السجن ، فظن أنه أصبح
ربا لثلاثمائة وثلاثين غرشا ونسى أن أيام العطلة من كل أحد
وما يلتحق بها من أيام المواسم قد قرضت من رأس ماله
ستة وتسعين غرشا فلم يطرح من حسابه ذلك القدر
العظيم ، ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين ألم بهذا
الخسار وذلك الغبن المبين

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينة
(كراس) على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر
الى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الانجاز فى
العمل فعرض على رب المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة
وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملل فعكف
يعمل بخبرة ومهارة وسأل فى أثناء ذلك عن الأجر الذى



يصيبه العامل في يومه فقالوا له ثلاثون صليدا ، ولكن رب
المعمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم أنه يحمل
تلك الورقة الصفراء

فقال جان فالجان في نفسه تلك هي الخطوة الاولى في
سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة
الصفراء ، فلعنة الله على كل ذي لون أصفر غير الذهب

فاني وان كنت قد نجوت من السجن فلا أظن نفسي ناجيا
من جور ذلك الحكم

هذا ما حل به من الغبن في مدينة كراس ، ولم ينس
القاريء ما أصابه في مدينة ديني



ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش
ونعومة الملمس ، وقطع غرارة ذلك السرير الذي لم يكن له
به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه الى مضاجع
الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من النقش وكان قد
هجع ثلثا من الليل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده
النشاط وكانت عادته ان لا يهجع الا قطعا من الليل فلما
تنبه اخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم أهوى رأسه الى الوسادة
وجعل يعالج النوم من جديد

ومن قضى يومه بين الألم والاضطراب ثم أخذ مضجعه
بعد ذلك كن النوم الى الحلول بمقلته أسرع منه الى سواه ،
ولكنه اذا تيقظ فقلما يجد النوم الى عينه سبيلا

كذلك كان جان فالجان فقد استعصى عليه النوم وأدركه
الأرق وانتابته الهواجس والافكار وجعل يتنقل به سيال
الفكر من مكان الى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة
مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها

على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ،
فما زال رأسه مسرحا لسوانح الأفكار وميدانا لسوابق
الأوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار واقسم
لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأواني الفضية التي
لمحها ذلك الشقى على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح
الخادم وهي تضعها في أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة
من سريره

فسوات له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ما كان
يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثنى عنانه عن ركوب
طريق العار أبى طمعه إلا أن يقف به على رأس ذلك الطريق
فلبت ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ويكافح شيطان هذه
النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان
اختلاس تلك الأواني فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل
ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه في
حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه في الظلام
فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه
وهو على هذه الحال في جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك
الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما
حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد
الشر الذي كان يجول في نفسه

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة
التي نزل الى قاعها غواص الفكر ، للبت كذلك حتى الصباح
فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم
والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيا للعمل وأخذ سمته
الى مخدع العابد وعلق أنفاسه وأخرس صوت أقدامه ومشى
على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ الباب تسمع فلم يسمع
شيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه

هرة تحاول غشيان ذلك المكان فلان له الباب ودار على
عقبه بحركة لم يسر الى السمع صوت لها
فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جراحة
منه في الاولى فازداد لنا حتى فتح له طريقا يسع مروره
لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه ، قد دعتة الى
طلب الزيادة في انفراجه

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الاقدام
فدفع الباب مرة ثالثة أشد من أختها وكان الباب على ظمأ
الى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا ، دوى
له في هذه الظلمة صوت جاف فاحتوته الرعدة وكادت تقف
ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ
في الصور ، ومثل له الفرع ذلك الباب وقد تحول الى كلب
عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لايقاظ أهل
الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن أنه لا محالة هالك ،
وخال عروقه وهي تنبض في صفحتيه مطارق تطرق الحديد
وأن أنفاسه تصفر تصفر الرياح في بطون الكهوف والمغاور ،
وأن ذلك الباب قد زلزل الأرض زلزالها فزعزع أركان المنزل
وأن هذا الصوت النكير قد أنذر الناس بالكبسة ، فما هو
الا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع في قبضة
العسس فيعيدوه الى سيرته الاولى

ولبت حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض
الأنصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسر مما كان
في نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فاذا العابد يغط في
نومه ، وأصفى بأذنيه ، فاذا الدار في سكون الرموس

فخفض من جزعه ودعا اليه الاقدام وخطا خطوة فاذا
هو داخل الحجرة فجعل ينقل أقدامه باحتراس كراهة أن
يصطدم بشيء من الأثاث . وأنه ليختلس الخطى اذ برز القمر
من وراء غمامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة

فأنارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير
ذلك النائم

وكان الطبيعة لم ترحزح هذا النقاب عن وجه القمر في
تلك الفترة الا لتوضح لعيون الكون عمل ذلك الجاني لعله
يذكر أو يخشى فلقد كان القمر منذ زمن لا يتعدى شطر
الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنه في اللحظة التي
أوشك فيها أن يعثر هذا الشقي بأعواد السرير

ومن رأى ذلك المضطجع على فراشه ، رأى رجلا قد
قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق في وجهه
نور اليقين ويجول في محياه ماء البشر وترتسم على وجهه
آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شفتاه بابتسامة الأمل
الفسيح ، ويتأرجح من أردانه ريح التوكل

وقد راع هذا الواقف جلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين
الأكبار الى ذلك الجسد الذي سكن فيه التقى ، وتلك الروح
التي باتت تسنح في عالم الأسرار وتسبح في ذلك الملكوت
السماوي

وكانت لله مشيئة في ذلك الراقد ، فقد أفاض عليه من
أنوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا
في اليقظة والنام لذلك كان جان فالجان وهو مقيد في مكانه
بقيد من الخشية ينظر اليه وقد تمشيت العظمة في نفسه
وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالات

ولا يعلم الا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال
وهو يدمن النظر الى ذلك الراقد الذي تنتشر على وجهه
طبقة من النور السماوي تمازجها نفثة من الروح الالهى الذي
أنار الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلا في وجهه ، والوجه
مرآة الضمير

وزادت بهجة البدر في بهجة ذلك النائم فكان يراه جان

فالجان في نور فوق نور ولم يزل واقفا في مكانه ولم يحول
بصره عنه ، وما شك من رآه في أنه يتردد بين أن يهوى بعصاه
الى تلك الجمجمة فيشجبها أو يهوى بفمه الى تلك اليد فيقبلها
كل ذلك والعابد غارق في نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات
المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو
باسط ذراعيه وكأنه يومئ الى أحدهما بالوقاية والى الثاني
بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة الى الاسراع في العمل

فاندفع يمشي الى الأمام حتى وقف عند تلك الأواني
الفضية وهي في سقطةا فتناولها ورجع أدراجيه ومر بجانب
السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى اذ جاوز الباب
انحدر الى الحديقة فألقى بالسفط على الارض بعد أن نقل
الى خرجه ما كان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج
مع البازي عليه سواد

ولما توفي الليل هب العابد من نومه وخرج يجول في حديقته
وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهي تهوول
اليه وتنادى : « أيعلم مولاي تولى الله حراسته أين سفط
الأواني الفضية ؟ »

فأشار العابد اليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال
لها : « أليس هو هذا ؟ » . قالت : « كأنه هو ولكن أين
أواني ؟ » . قال : « هذا ما لست أدري » . فصاحت
الخادم : « كان الذي خفت أن يكون فلقد فقدت تلك الأواني
وأكبر ظني أن ذلك الرجل الذي غشنا بالأمس هو الذي
ذهب بها »

ثم طفقت تجرى الى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهي
تقول : « نعم ذهب بها فلا بورك له فيها » ، ولاحت منها
التفاته فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ،
فجعلت ترسمها بالنظر حتى انتهت بها الى إحدى زواياه

فشاهدت آثار تسلفه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط »

وما زالت تبتدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الأواني ؟ ألم تكن هي من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل في فعلته فان هو إلا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها فلا تجزعى فليس في الأمر ما يدعو الى الجزع وهذه أواني القصدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها »

ثم غادرها وانكفاً الى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قد أخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فاذا ثلاثتهم من الجند واذا صاحبه بالأمس يكاد يذوب بينهم فرقا

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين الى تلك الأواني الفضية ، وأنت تعلم أنك ربهما منذ الأمس . وما أنساك أن تذكرهما الا شيطان العجلة . فخذهما فلعلك أن تصيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك ! »

ثم التفت الى الجند ، وقال لهم : « لقد آذيتموني في ضيفي انه خير مما تظنون »

والتفت بعدها الى صاحبه ، فقال له والبشر يجول في محياه : « اذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فان لك لمدوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهذا بابنا لا يفلق في وجه الطارق ، وما هي الا أن تدفع الباب حتى تكون في وسط الدار » . ولما تم انصراف

القوم ، قال له : « لقد جعلت لى عهد الله أن تنفق ما أخذت
فى رياضة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله
عهدك » . فلبث الرجل مبهورا عند سماع ذكريات ذلك
العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد :
« اعلم اننى اشتريت نفسك بعد أن سللتها من يد الهلاك
ثم وهبتها لله فلا تكن عليها من المسرفين »

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على
وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشعر
لفرط ما نزل به أكان يقبل أو يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب
فى قطعة من الارض لا يتعدها



وهكذا قضى سراً يومه فى أودية التيه والضلال ولم
يشعر بألم الجوع وان كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد
ينشق غيظا ولا يعلم الا الله على أى شىء قد أمسك هذا
الفيظ فى نفسه ولعله سرى اليه من ندامته على ماضيه أو
من خذلانه فى حاضره . وكأنه كان يحس برقة قد أدركت
فؤاده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه
كلما شعر بانزعاج تلك الغلظة التى أسكنها فى فؤاده ذلك
الظلم الغابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر . وجعل يتساءل
فى كل آن عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة الى السجون
على البقاء على تلك الحال التى لا يعلم مآتها

كان على عطفى طريقه سياج تطل منها زهور قد أخطأتها
أيدي الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها
ذلك الأرج الفياح الذى لم يكن له عهد به منذ ابتدأت أيام
محنته

وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس

والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء
ولما كان الاصيل وقد رسمت الشمس على سطح الارض
ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعا في جوف خضراء ليس
فيها سواه وقد مر برأسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى)
تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء

وانه يفكر فى أمره وفى تلك الاسمال التى كانت مشارالنفور
لكل من يراه اذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فاذا
هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فاذا هو غلام يعد من العمر
اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا
صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من
الاطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ،
ويلعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته
فانه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها اذ هوت كبراها الى
الارض وأخذت تجرى على رأسها الى حيث كان جان فالجان
مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العواسج

فما هى الا أن انتهت اليه حتى كان أسرع من السهم فى
ممره الى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان
يحرص عليها حرص الموت على النفوس ، ويترسم اثرها
بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الارض نهبا

ولما علم بمقرها وثب اليه فاذا هو يرى عنده رجلا ، فلم
يأخذه الروع ولم يعتره الدهش
وكان الطريق اذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا
الجو الفسيح الا قطقة (١) سرب من القطا يسبح فى الجو
على قيد مرمى السهم

فوقف الغلام فى وجه الرجل وقد ألقى الشرق (٢) فى شعر
رأسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة
تعلوها حمرة النجيع (٣) ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح

(١) صوت لطير القطا

(٢) بمعنى الدم

(٣) بمعنى الشمس



الغلمة وسكينة الأبرياء : أين قطعتي ؟ فمد الرجل بصره اليه وقال : « من أنت ؟ » قال : « أنا (فرجى) الصغير »

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذ الأول يلحف في السؤال والثاني يبالي في السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى الى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية فزمهر الرجل في وجهه ، ومد يده ليلتمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ في القول حتى أحفظ (١) ذلك الشيخ فثار من مكانه وأهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : ان لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! »

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى على شيء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس

ولبث الرجل في مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص في لجج من الأفكار وكأنه كان ينظر الى أصل شجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول ، ولولا قشعريرة سرت الى جسمه من قرّة ذلك المساء لما عاد الى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ في الارض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذى وكأن أجفانه قد شدت الى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هي ترميه بنظرات تخترق أحشاءه

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب اليه السكون فاندفع الى الأمام وانقض عليها انقضا مض القضاء

ولما صارت في يده أخذ يستقرئ بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينه في أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك

(١) أغضب

الحال في أنه ضار من الوحش يلتمس مربضا يستكن فيه
على أنه ما كان يرى في تلك الأنحاء إلا ضبابا قد أعاره الشفق
لونه الوردى وقد مد الظلام على الأرض رواقا يقصر فيه
قاب العين

فشرع في السرى وقد لبس الدجى وتغلغل في هذا الفضاء
وطفق يهرول في مشيته وركب تلك الطريق التي نجا منها
ذلك الغلام المغبون وما هو إلا أن خطا فيها بعض الخطوات
حتى وقف بغتة ورفع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء
أن يسمعه فينقلب إليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شيئا
فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه ومزق
ذلك السكون صوته حتى يأس من لحاقه

ولو كان الغلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن
إلى أجابته ولضاعف من عدوه وبالف في اختفائه طلبا للنجاة
من غائلته

وأن اليأس لينهب فؤاده نهبا إذ بصر بشبح يخوض في
أحشاء هذا الليل البهيم ، فداناه فاذا به رجل يحمل شارة
الرهبان وقد امتطى جوادا ، فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر
« ألم تعثر في طريقك أيها الراهب بغلام صغير ؟ » فقال :
« كلا » قال الرجل : « انى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى
فرجى » قال : « لم أر أحدا » ف ضرب الرجل بيده إلى
جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : « خذ
هاتين وأنفقهما في سبيل الله وفي مواساة ذوى المتربة وأننى
أدعوك بالله أن تقودنى إلى السجن فانا بعض المجرمين »
فما كادت تستأذن هذه الكلمات على سمع الراهب حتى
همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس في
مكانه وهو كأنه بعض الأنصاب . فلم تكن إلا لحظة حتى
استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط في عقله
وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم أنه يرى

انسانا جاثما او واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب في هذا الفضاء وقد انقطع عن اجابته كل شيء حتى الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به لكل الفضاء فسقط على حجر هناك وقال وهو مكب برأسه على ركبتيه : « أشهد أنى بأئس ! »

وجال الدمع في عينين لم يسبح انسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذي صدعته الخطوب



خرج هذا الرجل من عند العابد وقد علمنا ما كان من أمره وأنه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله فما وجدت العظات الى قلبه سبيلا ، ولا كان لتلك الأخلاق الفاضلة سلطان على أخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم الى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التي نفرت من الهدى نفارها من طبائع الأبرار ، وتحصنت في معقل من الضلال لا تبلغه العظة ، ولا تعمل فيه الزواجر وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبليتي أذنيه . في نفسه منها ما يقع ، فيبالغ في صدها ، وتبالغ في كيده ، حتى أوشكت أن تأتي على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين

وقد بدأ يشعر في هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التي خذل أمامها عناده ، وأنه ليجنى على نفسه أن هو أبى الا الاصرار على ذلك العناد والحفاظ والتمسيك لذلك الحقد الذي وقره في صدره على جنس البشر ، وقد وجب عليه أن يخرج من تلك الحرب

أما قاهراً أو مقهوراً ، تلك الحرب التي قامت بين نفسيين
اتخذت من تقوى الله جندها ونفس جعلت حزب الشيطان
حزبها

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الأمر ثار من مكانه وأخذ
يسرى على ضوء ذلك النور الذي أوشك أن ينير سريره
ويا ليت شعري هل كانت تعاوده إذ ذاك ذكرى تلك
الليلة التي قضاها في مدينة (ديني) وهل كان يسمع صوت
ذلك الهاتف السماوي الذي بات ينذره بعقباه ويكل له
الخيار بين خلتين : أما نزوع عن الفواية فسمو إلى مقام
الأبرار ، وأما استرسال في الضلالة فهبوط إلى قرار
الفجار ، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين : أما سعادة
ذلك العابد ، وأما بؤس خير منه بؤس المصنف في قاع
السجون

وسبيله في الأولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علق بأجزاء
نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكاً نقياً ، وفي الثانية أن
يلوثها بحمأة ألفى والضلال فيمسي طريداً شقياً



وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التي عرضناها على القارئ
منذ العهد القريب ولا زلنا نقول أن الخطوب تفتق الأذهان
ولكننا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم في فؤاد ذلك
الرجل ولعلها كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة
وخيالاً

فلقد أحدث في نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من
السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد
قرع عينا حديثة العهد بحالك الظلام

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة في أعلى مجالها وتراءى له
أتيها يرفل في ثياب البهجة والبهاء ، أزعجه ذلك المرأى فلم

يستطع عليه صبرا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس فرد
منه الطرف وهو كليل

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الفصوب الذى
سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على أمره ولا هو بصاحب
تلك الفعلة الشنعاء

وانما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته
الفطرة الوحشية الى ارتكابها بينما كانت نفسه تسبح في
سماء الحياة الجديدة التى أكبرتها

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها
بأجزاء نفسه مخالطته للأشرار في أيام سجنه ولا يدرى أغيا
كان يفعل أم رشادا

وحين أنست عينه بذلك النور وسكنت نفسه الى صحبة
التقى وردت الى طبعها رد الحسام الى قرابه علم أنه أتى
عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزائل أعضاؤه رهبة وتسيل
نفسه جزعا

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى
نسجته على بصيرته أيدي الخطوب ، وفصلت في نفسه
بين الحق والباطل فعلت بالأول وسفلت بالثانى كأنها ذلك
الجوهر الكشاف الذى يلقي به في المزيج ليباعد بين أجزائه
فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر

وقبل أن يلم بما ألم به أو يدرك مأتى تلك الحال التى
وصل اليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد اليه ما سلبه
اياه حتى اذا يئس من لحاقه وقف ينظر الى ماضيه فأنكرت
نفسه نفسه

أنكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبتها منذ
عشرين عاما ، وشبه له أنه في عالم الأحلام ، وأنه يرى أمامه
طيفا يمثل له انسانا قد نحست طلعتة ولؤمت غريزته وخبثت
طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة

السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم المقوت
(جان فالجان)

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الإدراك فرسخ في
نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وأنه يرى أمامه
(جان فالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر
في مرآة قد رق ماؤها

وأنه ليجرع كأس الفضاضة من يد تلك المقارنة إذ لمح
ضوءاً سرى في جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الأولى
ضوء مصباح ، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل في صورة
البشر حتى كمل انساناً سوياً ثم أخذ يدانيه شيئاً فشيئاً
حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو الا نور الفضيلة
قد تمثل في صورة ذلك الرجل الكريم

فجعل ينظر بعين بصيرته الى هذين التمثالين القائمين أمامه
ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة
أخرى

وبدأ يتضاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحي
رسمه وبقي العابد وحده في ذلك الهيكل النوراني
فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة
في عينيه على الخروج

فما زال ينتحب انتحاب الطفل ويبكى بكاء الشكلى حتى
سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على أثره تلك
الحياة الجديدة التى لم يستمرىء لها لذة قبل اليوم ،
وترأت له صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه ،
فجعل يقرأ فيها سطور ماضيه فنظر جريمته الأولى وعلى
يمينها التوبة والاستغفار وتمثلت له غلظة قلبه وفظاظة طباعه
وذلك الانتقام الذى أضمره للناس في يوم تسريحه

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام
كل أولئك كان عليه مسطوراً ووجد ما عمل حاضراً
ولا يظلم ربك أحداً

فسرى وهو مأخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدري له
وجهة حتى اذا أفجر (١) وعاد الى رشده رأى نفسه راكعا
على عتبة ذلك العابد



ذكرنا في المقدمة ما كان لفكرة ذلك المؤلف من سرعة
الانتقال وقلنا انه بينما نراه يسابح الاجرام في أفلاكها اذ هو
يدارج النمال في مدبها

وقد سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره الى يراعه .
فانى لأعانى من تعريب ذلك الكتاب ما أعانى ، اذا به قد انتقل
طفرا من سرد تلك العظات ، الى الخوض فى السياسة

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع الى فلك السياسة
دائب الرصد لاجرامه ، مسلسل العنان لجواديه : فكره ، ويراعه

فما كاد يأتى على ذلك الفصل السابق حتى تدفق فى
سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملاً صحيفتين بأسماء لم يجر لها
ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد . فرأينا أن نغفل
ذكرها وأحببنا أن يكون الكتاب غفلاً من تلك الأحاديث
المبتورة التى لم يكن لها أثر فى غير ذهن واضعها ، وأن
القارئ ليخرج من قراءتها وما فى يده شىء منها ما لم يكن
ملماً بحوادث تلك السنة واقفاً على تاريخ هذه الأمة ، ومن لنا
بمثل ذلك القارئ الخبير

(١) أفجر الرجل اذا أدركه الفجر

الفصل الثاني

فانتين

ولدت تلك البائسة في قرية (مونترای سيرمير) ولا تعرف لها أما ولا أبا ولا من يمت إليها بحبل القرابة ، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك . فوردت سجل العناء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج، وانها لتدرج ذات يوم في الطريق وهي تنتعل أديم الأرض (١) اذ مر بها بعض السابلة (٢) وسماها (بفانتين) ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذي أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها

ولما بلغت العاشرة من عمرها - ولا أدري كيف بلغت - خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت في ضواحي تلك القرية

فما زالت تكدح في طلب العيش حتى يفتأ أو كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال، وساقها قائد الاضطرار الى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت الى باريس ، وألقت نفسها في معترك تلك الحياة الجديدة ، فما زالت تعمل لبطنها، وهي تطرق أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها الى نهلة من موارد الغرام

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت

(١) بلا حذاء . (٢) عابر السبيل



ببهجتها عن بهجة الحلل، وأمهرها الحسن بما لم تمهر به أترابها
أمهرها بالنفيسين : العسجد في شعرها واللؤلؤ في ثغرها
فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى
وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فاذا بها ترى فيه وجه
ذلك الانسان الذي غلبها على قلبها، فأرضعها أفويق الآمال،
وأرشفها رضاب الأمانى ، حتى أخذت عفتها تتسلل قطرة
قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله
وكانت في مبدأ أمرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفاف
فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها في
الميل عن ذلك الساحر ، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعا
الا لتميل اليه ميلا

كذلك كانت حالها حتى أصبح الحب وقد غلبها على أمرها
وسقطت بين ذراعى ذلك الأثيم فافترشها ما شاء

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء اذا لم تحصن
نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح (١)

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ،
وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ،
فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق
النساء

وكان الرجال في بلاد مختلفة وقد هبطوا باريز في أيام
العطلة السنوية

وما كان ينصرم أجل تلك العطلة حتى انصرم جبل
الوداد ، واختفى أولئك الأربعة في يوم واحد
وانفرط على أثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثانى ،
فبقيت فانتين وحدها بلا أنيس غير ذلك الجنين الذى كانت
تحمله فى أحشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت
الأحزان ، وجعلت تعاني من ألم الفراق ما تعاني

(١) حبلى

وزكا حب ذلك الغائب في فؤادها . وخرجت ذات يوم
تستكتب الناس له كتابا تدعوه اليها ، وأبطأ خبره عنها ،
فشفعت كتابها بشأن وعززته بثالث

وما زالت تستكتب الناس وترتقب الجواب ، حتى
احتواها اليأس وبلغ منها القنوط ، فأقبلت على نفسها تلومها
وباتت تحز الودج (١) أسفا على حالها ، ووضع حملها فاذا
هو طفلة فسمتها (كوزيت)

وأقامت ما شاء الله حتى نزلت بها الضائقة وحضرها
العوز ونضبت موارد الرزق

وكانت لها فضلة مما كانت تتعجل به في أيام لهوها ،
فما زالت تنفق منها وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ،
حتى أمست وليس في يدها ما تستعين به على سد حاجتها
وقد زهدتها أيام قرب الحبيب في مزاولة العمل الذي
كانت تصيب من ورائه الرزق لتوفر أسباب العيش وعدم
الحاجة الى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذي ولدته فيها
الضرورة وهى العزم وفنى الحزم

وأصبحت ترى الأرض في ناظرها وهى أضيق من كفة
الحابل (٢) ، فعزمت على التحول من باريس والعودة الى مسقط
رأسها ، وقالت : لعلى أجد هناك ما أصون به أديم هذا
الوجه من الأخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة

ولما صحت عزيمتها على ذلك جمعت اليها ما بقى من
حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم
ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء وهى
كأسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهم غاية

وتنكر لها كل شىء فودت بجذع الأنف لو أن ظهر الأرض
من الانس أعرى من سراة الأديم (٣) . فسارت ولو رآها أقرب

(١) الودج عرق في العنق ينتفخ عند الغضب ، والمراد شدة الندم

(٢) كفة الحابل جبالة الصائد

(٣) سراة الأديم ، ظهر الجلد . والفرض ألا يكون في الارض انسان

الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بها من
الهزال ، واخترم جسمها من السقم ، وان كانت لا تزال
عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر



أخذت طريقها الى بلدتها وجعلت كلما أخذ منها التعب
تنتحي ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب
المسير وتغذو طفلتها

ونزل بصدرها نازل من السعال دعت الرضاعة الى
النزول بذلك الصدر الضعيف ، فضاعف من وصبها وزاد
من ألمها . . وما زالت ترمى بها المرامي حتى وقف بها
السير على نزل (١) حقيير بقرية (منتفرمى) كان قائما على
رأس طريق يدعى بطريق الخبازين أسس في صدر القرن
الرابع عشر وزالت معالمه اليوم

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الانس يدعى «تينارديه»
وكانت من تحته ذئبة هي أحد الذئاب وأضرأها تدعى باسمه
وهما يقطنان مع أولادهما في ذلك النزل

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة (واطرلو) فقد
يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحا كبيرا قد نقشت عليه
هذه الكلمات : « هلموا الى جندي واطرلو »

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا
آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق في
أثوابه الدم . وهما تحت جو أشبه الأشياء بجو المواقع ،
عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء

وقد طرح أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات
التي كانت تستخدم في ذلك العهد لحمل الأثقال وجلب

(١) النزل : الفندق

الأشجار من الغابات . وكأنها لم تطرح في ذلك المكان الا لتصدا
أو لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة
لوليدتها

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكسا الصندأ
حديدها ، فأقامت في الطريق وهي كأنها بعض أولئك الرؤساء
الدينيين الذين قاموا عشرة في سبيل الشرائع الغابرة

واتفق أن وقفت (فانتين) على ذلك النزول حين كانت
تلك الذئبة تلاعب طفلتيها ، وقد وضعتهما في الأرجوحة ،
وهما كأنهما قمران في طفاوة (١) أو زهرتان في كمام

وكانتا متعانقتين في هزة ذلك المهاد ، وصغراهما بين
ذراعي كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرا ،
وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين

وجلست أمامهما على كذب منهما تشارفهما وتتغنى بشيء
من الكلام المقفى . وانها لتشدو كذلك اذ وقفت فانتين على
رأسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ » . فلم تحر
جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد
استطرد بها جواب الطرب في ميدان الغناء . فعادت فانتين
السؤال بصوت كان خليقا بالوصول الى مسمع تلك
المندفة في غنائها . فالتفت اليها ، فاذا هي ترى فتاة قد
أنصب بدننها السير وكدها الهم والضير ، ونال منها البؤس
وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها
من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا
في محاجرها من ذلك السحر الحلال . فانتقلت حمرة وجنتيها الى
عينيها ، وهاجر سواد لحظها الى حظها ، وامتد اصفرار شعرها
الى لونها ، ودب سقم جفنها الى صدرها ، وسرى نحول خصرها
الى جسمها ، والتقى في مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ،
 واجتمع في قدها ذلك الهيف وذاك الهزال

(١) الطفاوة دارة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهي غطاء
الزهرة



وقد أدمى ادمان وخز الأبر سبابتها أيام كانت تخطط
لتعيش ، وذهب الفقر بزينتها ، فليس عليها من الثياب غير
ما يحصنها من البرد ويقيها الحر



تلك فانتين التي كانت تقف على جمالها العيون ، ولو أنها
تبتسم اليوم ، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم في ثغرها ،
ولكن الحزن والشقاء لم يدعها للابتسام سبيلا الى ذلك الثغر
الذي كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التي أودعتها كل
ما تملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساذجة الطرف عبلة (١)
الساق وضاعة الجبين . لها من صدر أمها مهاد ، ومن ذراعها
وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين
ذراعين قد صيفتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان

ف قالت لها ربة النزل وقد رفقت في القول : « نعم هما
ريحانتاي » ثم دعتها الى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ،
وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلمها ، وجعلت تحاسنها
في القول وتلين لها في الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شأنها
ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا الى
تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صفارها

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق
الطويلة ودون البادنة يزدهيها شيء من الخلاعة ، ويشوب
لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق ، ولا أحسبها
في ذلك العهد الا وقد جاوزت حد الثلاثين

ولو أنها انتصبت قائمة لراع (فانتين) طول قامتها
ولذهب بارتياحها وسكونها الى محادثتها ، ولا بدع فانها

(١) عبلة الساق مفتولتها

لم تكن الا حرث جندى وفراش وحشى (١)

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض اليها جملة حالها ، غير أنها كتمتها أمرها ، وألقت في روعها أنها أرمل قد مات عنها بعلمها . وأن الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها في باريز فغادرتها وخرجت تضرب الأرض رجاء أن تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وأنها قضت عامة يومها وهى تعاني تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها اليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور في هذا الفضاء بعينين قد جال في انسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة الا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها في هذه الفترة أنها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى

وما هى الا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعة بتلك الارادة التى لا يقف في سبيلها شيء عند أولئك الأطفال ، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا . ولما صارت على الأرض أخذت تدب حتى انتهت حيث الأرجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى ، وقامت الأم الى بنتيها فأنزلتهما الى الأرض ، وقالت لثلاثتهن هيا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتلاف فطفقن يرحن ويلعبن وينكتن فى الأرض نكتا وكانت تلك القادمة الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يدا فى حفر تلك النكت

(١) أى كانت زوجة جندى أو زوجة رجل متوحش



وجلست ربة النزل الى فانتين تحدثها وتحاسنها
وما زالت بها حتى خلبتها ، وأنست منها الارتياح الى سماع
حديثها ، فأقبلت عليها بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها
وهي تخبرها

وبينما تتحدث الأمان في ناحية ، وتلعب الصغار في
ناحية أخرى برزت إحدى بنات الأرض من خدرها وخرجت
تسعى من بعض تلك النكت ، فراع الصغار منظر تلك
الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا وأشفقن منها وقد
ضمنهن الخوف الى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن
واستولى عليهن الدهش جميعا

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال
وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل ، فقالت :
« لفانتين وهي تحدثها ألا تنظرين الى هؤلاء الأخوات
الثلاث ؟ »

فوصلت تلك الكلمة الى فؤاد فانتين قبل سماعها فأمرسكت
بذراع صاحبته وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم
بنفسي منذ رأيته ، فأني قد عولت على مغادرة ابنتي بهذا
النزل . أفلا تكفلينها ؟ »

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، وأشارت
برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول

فقالت فانتين : « ولا أحسبك ألا ستعجبين من أمرى ،
ولكن الحاجة تدعوني الى ذلك ، فقد استحال على أن أجمع
بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية
الى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى
أمها الجديدة وباعثة لك فى كل شهر بما يقوم بنفقتها ،
وآخذه على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كل شهر
لكفالتها فانظري ماذا تأمرين »

وما هى الا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعت فى
صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا

يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت الى صاحبها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « انه صوت زوجى وهو رب المنزل وصاحب الأمر والنهى فيه ، فلا تجعلى له سبيلا الى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المؤونة »

وقال الذى هى فى داره : « لن نقبل الكفالة ، أو تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر » ، ثم لبث غير بعيد وخرج اليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور . وسارت ومدامعها تسابق خطواتها



وما كادت تغادر ذلك المنزل حتى غادرت الرحمة على أثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة الى القلوب سبيلا

وقالت المرأة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل ؟ وانى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون ، فان رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! »

فقال الرجل : « ومن رأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فان غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء » وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء

فلبست ثياب الذل ، وطرحت رداء الدل ، وكانت كلما شبت
يوما شب معها البؤس عاما ، حتى أصبح الثرى مهادها
والمدر وسادها ، وتبدلت من حزن أمها حزن التراب ومن
لين ذراعها خشونة الجمار

أين عين فانتين ترى ذلك الطمر (١) الذى تضل الأبر
سبيلها فى شقوقه ، وينتهى العد دون خروقه ، تضحي (٢)
فيه وتخصر (٣) وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب
الى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ،
الى حمل الماء ، تنطلق الى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر
والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة
وهى ثقيلة ؟

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل
الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون
الهر وفوق الكلب (والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل
ما أصاب)

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون
أنفاسها . فاذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا
الهواء » ويرقبون حركاتها ، فاذا تحركت قالوا لها : « لقد
كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل
رسمها

وأؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ،
فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة ، ووراء
الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من
الاجر لتلك النفقة الفادحة

وكان الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامراته ذات يوم :
« انى لأعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، ان هى الا بغى قد
غلبت على أمرها ، وما جاءتها تلك الطفلة الا من طريق السفاح .

(١) الثوب البالى (٢) يصيبها حر الضحى (٣) يصيبها البرد



ولا أرى شيئاً هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهضة والتماس
الزيادة في النفقة لعلنا نصيب من وراء ذلك ما نوفي به الديون، وإنى
ليعرض لى أن فانتين لا ترى بدا من الإجابة رجاء أن يختفى
أمرها ولا أحسبها إلا ستخضع خضوع المضطر . ! »

وسقطت الكتب على فانتين سقطت القضاء ، وكلها في
طلب الزيادة في النفقة ووصف ذلك النعيم التى ترتع فيه
طفلتها ، وكانوا كلما أفرطوا عليها في العذاب بعثوا لأمها
بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتها وكل ما تصل
يدها اليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون
وأصبحوا ببركة وجود (كوزيت) وكدح تلك الأرملة وهم
في سعة من الحال وبشاشة من العيش

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلاً للسعادة فان النزل
قبل حلول (كوزيت) لم يكن شيئاً مذكوراً فحلت بحلولها
البركة وبسم لهم ثغر الزمان

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعانى من ألم الشقاء
ما تعانى وهم يمرحون من وراء عذابها في بحبوحة النعيم
ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال
طفلتها لأنكرت رؤيتها ، ولغابت عنها معرفتها لفرط ما نزل
بها من البؤس وما نابها من الشقاء

وكانوا يتحدثون في تلك القرية بأمرها فيقولون أن أصحاب
النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون
طفلة لقيطة ويربونها احتساباً ، فنعم العمل ونعم الأجر
والثواب

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا
ركبت طريق قريرتها التى ولدت فيها حتى إذا أشرفت عليها
بعد الجهد والعناء نظرت فاذا القرية على غير ما تعهد ،
تسيل بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة
وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ،



وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ،
وهي أشبه شيء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منذ
اثنى عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هي فيه من رخاء
العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها : «لقد كانت سعادة هذا
البلد بمقدار شقائي . فاني ما كنت أهبط دركا في مهاوى
الشقاء حتى كان يعلو درجة في مراقى الهناء »

ولقد صدقت فانتين في حديثها لنفسها فان هذا البلد
قد أدر الله لأهله اخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة
بدخول رجل هبطه عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحت
جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره

وشبت نار في احدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ،
فهب الناس لاطفائها . فاندس الرجل في غمارهم وغامر
بنفسه في النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من
فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ،
فأكبروا فعله ، وملأوا أذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه
عن أجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك في أمره
وان كان غريبا

وبقى مادلين (١) وكذلك سمي نفسه - في تلك القرية
واتخذها وطنًا له ، ولا يعلم أهلها من أمره غير ما كان يلوح
على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قد وقف على
أبواب الخمسين من عمره وأصبح كثير الاطراق كلفا بالعزلة
ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل
في مصنع للتجارة كان قائما هناك وأحسبه دخل فيه أجيرا ،
فأقبلت دنياه - وناهيك اذا أقبلت - حتى أصبحت فضته
ذهبا وأمسى تراب عمله تبرا

ولم تكن الا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك
المصنع . فأثرى الرجل اثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية

تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات أخرى ،
وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الأثاث ،
وكان لا يدخل في عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من
النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى
أصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقدرون ما أودع في خزائن
المصارف بخمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية

وما آلت إليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها في صالح
الأعمال ومواساة البؤساء . وشاد في القرية مدرسة للذكور
وأخرى للإناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع في نطاق
دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا . . فاخفى
من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت إذا غشيت دارا رأيت
من بها في هناء ، وإذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها في رخاء
كل ذلك كان بفضل الانكماش في الأعمال ، وبركة الكسب
من الحلال

وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذي ترى الا بطرح الأثر
ومصارعة الجشع . . .

ولقد بلغ به من حب الخير أن أقام ملجأ للعجزة والمعدمين
الذين أمسوا من سقط المتاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيين
قبل ذلك اليوم لمثله) . وجعل في مصنعه خزانة لمساعدة
عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة

ولم يزل نجمه في صعود ، وهمته في صعود ، حتى نبه
ذكره ، وعم خيره ونمى خبره الى بيت الملك
فارتاح الملك الى سماع ما أنهوه اليه من أمره ، ورأى أن
يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر باقامته شيخا
على ذلك البلد

ولما بلغت ارادة الملك بالغ في الضراعة بالتماس الاقالة ،
حتى أقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من أخذها
عليه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم انه النزق ، وقال
آخرون انها القناعة



وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى
اتسعت هالتها ، فجدد الملك ارادته باقامة « مادلين » شيخا
لبلده ، وجدد مادلين طلب الاعفاء . !

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره ،
حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشى اليه
الكبير والصغير بالرجاء الى الخضوع لتلك الارادة ، فأكره
على ذلك المنصب اكرها

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ،
ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع في أول امره
الأموال انه تاجر يطلب الاثراء

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه أن به لجشعا ، وزعموا
حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور أنه أفقى لا يألف
النعيم ولا يعرف قدر السعادة

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا انه مائق يجمل به
الفقر ولا يليق بوجهه الفنى



ولبت « مادلين » في يومه مثله في أمسه لم يغير المنصب
من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ،
فبقى على عهدنا به من مداومة الاطراق ، وحب العزلة عن
الناس

فاذا رايته رايت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد
لوحت الشمس ، وجال في عينيه الوقار ، ولاحت عليه
سحنة الفلاسفة

وكان يجلس للنظر في أمور الناس ، فاذا فرغ من ذلك
انكفأ الى حجرته فقضى ليلته من مأكله ومشربه وانكب على
مطالعة الكتب . وقد رأى أن يعوض ما فاتته من تحصيل

العلوم في أيام صباه ، فعكف على الدرس في أيام شيخوخته
وان كان الفقر قد منعه في أوليات عمره من مزاولة التعلم ،
فقد ساعده الفنى في أخرياته على تناوله ، ورأى من الكتب
صدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن الى صحبتها وارتاح
الى عشرتها

وكان ينطلق اذا شمر النهار الى المزارع والغابات ومعه
آلة صيد قد اتقى الله في استعمالها ، فما هاج بها غرابا
ساقطا ولا غال طائرا لا قطا . ولكنه كان يحملها لرد الفوائل ،
فيصحبها في وقت أمنه لتؤمنه في وقت خوفه

وكان مع ذلك ماهرا في التسديد ، حاذقا في التصويب
يصوب على الشيء ويرمى ، فيضع الرمية من الهدف حيث
يشاء

وهو فتي القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله ،
ويمسك بذنب الفرس ، ويخلد به الى الأرض فيتحلحل اذا
كان قويا ، ويقعى اذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهائج
فيأخذه بقرنيه

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد
من الألم لغيره ما يجده لنفسه ، فما مرت به جنازة الا وكان
أول المشيعين لها ، ولا امتحن انسان بمكروه الا وكان أول
المعزين له . وتراه عند انطلاقه الى الجنائز يختلط بجماعة
القيسيين فينوح نوحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكأن نفسه
تسبح في غير هذا العالم وعينه تشخص لغير ما يدركه
الحس ، وكأن أسلاكها من الالهام الالهى قد امتدت بين أذنيه
وبين أسرار ذلك الأبد ، فجعل يلقي بسمعه الى تلك الأصوات
التي باتت تشدو بحزن على حفاى هاوية الفناء

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يفشى
دورهم وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد
وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة أن يرى ، كأنه
يرتكب اثما أو يعالج اختلاس شيء

ويعود رب الدار ، فیری فیها أثر (مادلین) فیظن اللصوص
قد ارتقبوا غیبتہ فجاسوا خلال داره ، فلا یزال یتفقّد
حاله حتی یعثر بتلك النقود فیأخذها وهو یقول لقد أرادوا
سلب نعمتی ولكن أبی الله ألا أن أسلبهم مالهم ، وما ذاك
إلا لأمر نزل بهم فأذهلهم عنه

وكذلك كان یجىء بالحسنة وقد كفی الفقیر مؤونة السؤال
ووفر علیه غضاضة ذلك الموقف . . ولا تسئل عند اللقاء عن
طلاقة وجهه التي كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن
محاسنته للمعدمین . فهو كما یصفونه غنی لم یخرج به
الغنى عن حد التواضع ، وسعید لم تقف به السعادة على
التبسط والانشراح



وفي أوائل سنة ١٨٢١ أجاب عابد (دینی) دعوة ربه وقد
نیف على الثمانین من عمره ، فنعتہ الصحف وطار خبر
نعيه حتی وقع فی مسامع مادلین ، فوجد علیه وجدا شديدا
وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن
نبأه ومشى بعضهم الى بعض وجعلوا یقولون لقد كنا فی لیل
من الشك فی أمر هذا الرجل ، حتی أضاء لنا حسبه
الوضاح ، فما هو الا من تلك الأسرة الشریفة ، ولا ریب أن
نسبه یتصل بذلك العابد التقی

وأقاموا على ذلك الیقین آیاما حتی تعرض له بعضهم
بالسؤال فقال وقد أخذ علیه طریقہ : « انی أراك تحمل
شارة الحداد منذ نعی الناعی عابد مدينة (دینی) فهل أنت
ممن یمت الیه بحبل القرابة ؟ »

فقال (مادلین) وقد كان ینطق الحزن فی أحشائه : « كلا ،
وانما كنت فی أول أمری خادما عنده ! »

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع

سنيين لا يجد ألما لفقدان نور البصر وقد بقي له نور البصيرة
وبقيت اخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته ، ولا تنفك
عن ملازمته . فهي لا تريم عن مخدعه ، الا لامضاء أمره
أو قضاء حاجته . وكانت تحرص على رضاه حرص المرء
على حذقة عينه ، حتى رأى أنه قد استعاض عن عينه بعين
ذلك القلب الذي بات لا يفغل عن رعايته

ولبت ذلك البصير أميرا لدولة القلوب ، وكان يقول في
نفسه : لو تم الكمال لشيء في هذه الحياة الدنيا ، لأوشك
أمرى أن يتم كماله ، فاني أراني لا ينقصني شيء من السعادة
اللهم انك ان كنت قد استرجعت مني هبة النظر ، فقد
جعلت أفئدة من الناس تأوى الى

اللهم ان من آوت اليه الأفئدة ، كان خليقا أن يصبح
حامدا ويمسى مشكورا

وكذلك كان أمره في أواخر أيامه ، وأخته لا تزال بجانبه
يشاهدها قلبه ، وان لم ترها عينه ، وتتحسس روحه
روحها في ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب
للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء

نعم كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه الى نعيم
آخراه ، وبلغ خبر منعاه (مادلين) كما ذكرنا فوجد عليه
موجدته ، وأقام على حزنه حتى انصرفت أيام الحداد



وما زال الزمن يحل من حقد مبفضيه ويستل الوسائس
من صدورهم ، حتى أصبح وليس في القرية من يرتاب في
أمره ، فسكنت اليه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب
الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الأمل ، ومهبط الثقة
ينتجعه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد
اليه المتخاصمان من الأطراف للمقضاة فيصل بين المتقاطعين ،

ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طبع في نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه

عطف على القلوب الصوادف الا قلبا واحدا كان يبالغ في الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس في الميل اليه

وكان هذا القلب في صدر رجل من كبار الشرطة قد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد (مادلين) وهو في مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر في الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به أحس بدبيب الكراهة في نفسه بصورة قد أعجزه ادراك مآتها

ولا عجب فان لبعض النفوس اشرافا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقي ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى

وهو كذلك الشعور الذي يقع أحيانا في نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الأولى ، ويقف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ، ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها وبين طبائعها ويوحى اليها عند اللقاء ، فتري النفس التي ركبت فيها طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر

أقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكة بذراع أختها من نفوس تلك العجماوات

ولعلمت أن لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ويكيف أطواره ولأدركت أن هذه الوحوش وتلك الأطيوار لم تكن الا تماثيل أعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهي وان لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس الهاما من الخالق الذي جعلها لها تذكرة واعتبارا

أما الآن وقد سلمت معنا أيها القاريء أن لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا أن نمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطي وأعنى به (جافير)

زعم بعضهم أن الكلب اذا وقع على الذئبة اولدها جروا وأن الذئبة تخشى ان هى انتظرتة حتى يشب أن يعطف على صفارها فيفتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير . . فلو اننا جئنا بذلك الجرو ، وأسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيه القاريء شخص (جافير)

ذلك هو الرجل الذى ما فتىء يتعقب (مادلين) ويسير على اثره مسير القضاء فى حجب الغيب ، فهو اذا لمح ماشيا كاد بصره ينهب مواقع أقدامه ، واذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه ، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه : ترى أين نظرت هذا الرجل ؟ . . جعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكّار شىء درج فى أثناء النسيان ، وينتهى بقوله : ان يغلبنى هذا الرجل على امرى وان بالغ فى اخفاء أمره . .

وكان (جافير) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة ، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة ، وتهب من أردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت أمه سجيئة ، وهى من هؤلاء النسوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب ، وكان أبوه سجيناً بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء ، ولما بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الانسانى سدا قد استحال عليه أن يجاوزه . وعلم أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد الا أحد رجلين : رجل ناصبه العداوة فعمل على كيده ، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته وقد وجب أن يكون جافير أحد هذين الرجلين فشمست

نفسه عن الأول ، وسكنت الى الثانى . فانتظم فى سلك
رجال الشرطة وأخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى
عهد اليه بأمر التفتيش ، وأصبح كبيراً لفرقة من الجواسيس
وكان يمقت الأشرار مقتاً شديداً ويتفانى فى الإيقاع بهم ،
وان كان هو من سلاطهم

وقبل أن يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل
فقد رأينا أن نصور للقارىء خلقه فنقول :
كان جافير ذا سحنة خاصة به ، وكانت له لحية قد
أغرى موسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب
عليها وأجذب سافلها واستهلت ذراها عند
العارضين ، واكتشت أصولها عند العنفة (١) وكان أفتس
الأنف غائر المنخارين يخال الناظر الى غور منخريه وبروز
شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين ، وكان اذا
تبسم وقل أن يقع منه ذلك أراك ثغره أصول أنيابه ، فهو
اذا ضحك فنمر ، واذا غت (٢) من ضحكة فعمقور اتخذت
العبوسة مسكناً لها بين عينيه ، وأطلت النفرة من محاجرهِ،
وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه



ذاك خلق الرجل نصوره للقارىء وأما خلقه فقد كان
قائماً على خلتين كريمتين ، احترام السلطة الحاكمة ، ومقت
المستخفين بها

غير أن المغالاة فيهما قد خرجت به عن حد الاعتدال
فأنكر الناس منه ذلك

فكان يرى أن كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن

(٢) غت الضحك أخفاه

في باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل في الثقة
بكل عامل في الحكومة وزيرا كان أو حاجبا
وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة .
وهو لم يقع منه ذلك الأمر في حياته

ويقول وهو يعتقد ما يقول أن القضاة بهم عصمة عن
الزلل فهم لا يخطئون ، وأن رجال الحكومة لهم اشراف على
الأمر فهم لا يخدعون . ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة ،
وأن المرء إذا أجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الانابة
ولا يلوى بجريمته العقاب

كذلك كان يبالغ في الخلطين ولا يستثنى أحدا في الحالتين
وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع
القلب عالي النفس مهيب في العين قد أرصد حياته لشيئين
لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله
ويراقب الله في ذلك العمل ، ولا ينحرف شعرة عن أوامر
الدين ونواهيه ، فهو في حرفته كالراهب في عبادته

والويل ثم الويل لمن وقع في مخالفته ولو كان من ذوى
قربته ، فانه ليرد أباه الى السجن اذا قبض عليه وهو فار ،
وليعارض في رجوع أمه الى بلدها الا بعد انقضاء سجنها

وانه ليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسا وأهدأ ما يكون
ضميرا ظنا منه انه انما يرضى بذلك شريعة الأرض ولا يسخط
شريعة السماء

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه
انسان مرة متراوضا ، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم ،
كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء

وكنت اذا رأيته في حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب
جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عيناه تحت حاجبيه ،
واختفت يداه تحت كميه ، وانزولت عصاه تحت ردائه ،
حتى اذا عن له صيد أو سنحت له فرصة انتفض فظهر لك

ما اختفى من امره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة الى نور

قلنا انه لا عيب في ذلك الرجل غير تلك المغالاة ، فهو يغالى حتى في معاملته لنفسه . اللهم الا ساعات معدودة من أيام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفسه فيهنون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة

وآية رضاه عنها أن يعمد الى لفيفة من الطباق (١) فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله ذلكم (جافير) ومن ذا الذى ينكر خطر (جافير) ؟؟ هو احرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، اذا لفظ اسمه أمام أشد العتاة أنقلب على عقبه مذعورا ، واذا لاح شبحه أمام أحد الفارين تقيد في مكانه ب قيد من الرهبة

فويل لك يا (مدلين) من هذه العين التى ترسم اثرك ، وتلك الاذن التى تتسقط خبرك ، ولا أحسبك الا واجدا في نفسك ما يجده لك ذلك الرجل في نفسه

فأنت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه ، وان كنت قد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت السكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء أبطله عليه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام ، وكاد يأكل مقراض اليأس خيوط آماله ، وأوشك أن يعتقد بحلول الفشل فى مساعيه وأعماله

واتفق ذات يوم أن يخرج أحد سائقي العجلات ومعه عجلة

(١) المعروف الآن بالدخان أو التنباك

يجرها جواد . فانطلق بها في طريق كثير الوحل ، فغارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه ، وسقطت فوقه العجلة ، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد وهو مشفق أن يتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون إليه ، ولا يقدم أحد على الأخذ بيده

واقبل (مادلين) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ في الطين شيئا فشيئا ، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده في الطين حينا ، فأشار إليه مادلين بالسكون ثم التفت الى الجماعة وقال : أيكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ فوجم القوم جميعا ، فقال مادلين : انى أرى الوقت ضيقا وأرى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبا وان أبى الا المزيد فعشرون

وما كاد يأتى على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلا يقول : « ان القوم لا تنقصهم الارادة ولكن تنقصهم القوة ! » فالتفت مادلين ليرى القائل فاذا به جافير ، ولم يكن لمحاه عند قدومه

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ انه ليس على ظهر الارض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة ، اللهم الا اذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرا من حياتهم في سجن تولون ! »

ففض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك الا تعريضا وتقريبا له ، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها . ثم التفت الى الجماعة ليرى أيهم اقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ، ولم تكن الا جولة فكر ، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين

ركبتيه ليعتمد عليها في رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب الجماعة اشفاقا عليه ، وظنوا أنه لا محالة هالك ، فصاحوا به : أولى لك أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التفرير ، وانا نناشدك الله أن تستبقى حياتك

وقال له سائق العجلة وهو تحت كللك الموت : انى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك ، فانى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته

وان القوم ليحفز اليأس أحشاءهم واذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط ، وسمعوا صوتا قد صحله (١) التعب يدعوهم الى نجاته ويقول لهم : أعينوني بقوة فقد أمكنني الله منها

وكان ذلك صوت مادلين فأوقف (٢) القوم اليها ، وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر . وكان هذا السائق يدعى (فوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فأثرى ثم أملق حتى صار من سائقي العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد (٣) من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار اليه أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : لقد قدم مادلين وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد

(١) بع بتشديد الحاء من التعب

(٢) أسرع القوم

(٣) الحرد بفتح الحاء وكسر الراء المفيظ

ومن هنا كان مبعث حقه عليه ومثار حسده له
ولما سار مادلين من تحت العجلة بعد انزلاجها عن مكانها
وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقا تحامل
(فوشلفان) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبته يقبلها
وجعل يدعو له

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون الى
ذلك الوجه الذي بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه
سيما السرور والارتياح ، وجافير يكاد ينشق غيظا في
مكانه ومادلين يلقي عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات
معنوية

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة أمر « مادلين »
بفوشلفان فحمل الى مصنعه وأفرد له فيه مكانا ووكل به
اثنين من الممرضات ، وأوصى بالعناية به وجعل يعود
طرفي النهار حتى أبل من مرضه

ثم وجه اليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب
وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال
(وان كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت
منذ ذلك اليوم)

ولما أبل فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض
الألم باحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع الى
حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء
بباريس

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة الى مادلين ببراءة
وظيفته . وكان جافير كلما لمح حاملا لتلك الشارة التي
تأذن له بالتصرف المطلق في شؤون وظيفته ، كادت تطير
شظايا نفسه حسدا

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذي يقع في نفس الكلب
إذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل
يتحامي طريقه ولا يلقاه الا مكرها على لقائه

فكان اذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين ، واذا خاطبه
خاطبه خطاب المتحفظ الرزين

هذا ما كان من أمر جافير ومادلين . ولقد طال عليك
ايها القارىء انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف امام
تلك القرية

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من أمرها ،
فوقفت تنظر اليها ، وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه
ولا من يعرفها فسارت تعرفوها دهشة الغريب حتى وقف
بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه
ذلك الباب كأنما هي ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها
على رب المصنع ، فأمر بضمها الى قسم النساء فكانت
تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان
أجرها في اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل
حال مناساها وأمست تعيش من كسب يدها . ففرحت
بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكشيت في العمل
حتى برعت فيه ، وزادوا لها في الأجر ، فأمكنها أن تكتري
لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ،
فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح الى نظرة
شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ
ثغرها ، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير
التفكير في طفلتها وفيما سيكون أمرها في مستقبل أيامها

وكانت تحرص كل الحرص على ارسال النفقة في حينها
وتبالغ في كتمان أمرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز
وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير الى ذكر
« كوزيت » أو محل وجودها أو أن تخوض في حديث يجر
الى ذكر الزواج ، ولكن أبى النحس الا أن يلزم طالعها
فانها كانت كلما أرادت ارسال النفقة الى طفلتها في كل شهر
استدعت أحد الكتاب ، فاستكتبته كتابا الى أصحاب
النزل ، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه

عند قدوم الليل والليل أكتم للسِر ، فولد ذلك في نفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك ، ولفت أنظارهن الى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتي الا اذا أتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوي في طريقها عن الناس وتتحامى في المصنع الاختلاط بنا

ولا تعجب أيها القارئ فان أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة في الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويماليء كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته في تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطن الأمر ويرصد نفسه لاستطلاع السر ، فيخالط السوق ويجالس أهل المنزلة التي هي دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضمن بانفاق بعضه في سبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل في زوايا الطرقات لا يبالي بسقوط الجليد ولا يعاب بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا في الاستطلاع ورغبة في الاكتشاف ، حتى اذا ألم ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس الى أصحابه في الأندية يحدثهم وهو يميل بسفالته تيتها ، ويشنى عطفه كبرا كأنه قد اهتدى بأبحاثه تلك الى اكتشاف سر من أسرار الكون

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسوة اللاتي يعملن بذلك المصنع فانهن قد أفرطن في مراقبتها فعددن أنفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون في أمرها . لمحنها مرة وقد وقف الدمع في عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه في خفية فتغامزن عليها بالعيون وأصبح الشك عندهن يقينا ولم يكن علم الله بكاؤها

الا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذي غلبها على أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتسدين الى معرفة العنوان الذي تكتب به ، واجتمعن بذلك الكاتب الذي كانت تستخدمه في الكتابة ، فانطلقن به الى احدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما في فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وانها غادرتها بنزل في قرية (منتفرمي) وما يكتفين بما وصل اليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الاسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك في دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملًا الى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها

تلك (ما دام فيكتريان) التي كانت رسولهن الى قرية « منتفرمي » وهي التي قالت لهن عند عودتها : لقد أزلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وأنفقت على ذلك مئة وأربعين قرشاً



— واستفرقت تلك المؤامرة زمنا طويلا حتى استوفت « فانتين » عمر العام وهي بذلك المصنع . وفي ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيريات فناولتها مائتي قرش ، وقالت لها ان رب المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان وان أحسنت الى نفسك فلا تسكني القرية بعد اليوم فجمدت « فانتين » في مكانها وحاولت الكلام فخانها الصوت ونظرت الى وجه التي تحدثها فلم تلمح فيه للعطف مجالا فخرجت تمشي على استحياء وهي أسوأ ما تكون حالا،

وكان ذلك في الشهر الذي لؤم فيه صاحب النزل واشتط
في طلب النفقة منها فانكفأت الى حجرتها وجلست تفكر
فيما سيؤول اليه أمرها ، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة
الشيخ « مادلين » لتنفض اليه جملة حالها لعلها أن تصيب
منه قلبا رحيمًا ، فمنعها الحياء من ذلك ، وقالت في نفسها
لقد أمر بابعادي لأنه عادل وجاد على بمائتي قرش لأنه كريم ،
وما عسى أن يفعل الرجل معي أكثر من ذلك وقد وقع في
نفسه ما أنهى اليه من أمرى ؟

وكان « مادلين » بريثًا من ذنبها ولم يكن من عاداته
الدخول الى دار الاجيرات فلم يشرف على أعمالهن ، وقد
عهد بذلك الى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء
السريرة فأقامها رقيبة على الاجيرات ومنحها التصرف
المطلق في أمورهن . وكانت تلك المرأة بمنزلة من الأمانة
والرفق في العمل واسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة
التي اذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب
فهى التي باشرت التحقيق في أمر « فانتين » وهى التي
حكمت عليها وقامت بامضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين
التصديق عليه

كل ذلك يجرى بالمصنع في قسم النساء ومادلين لا يعلم
منه شيئًا ، ولا عجب فان أمثال هذا الرجل من أصحاب
النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر في شؤونهم
الى من يرون فيه الاخلاص ولا يحاسبونه يوما ما يأتيه من
ذلك العمل



ولما غادرت فانتين المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بدا
من البقاء في القرية لأنها قد ابتاعت أثاث منزلها بالقرض
والنسيئة ، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء

العاقبة ان هي غادرت القرية قبل وفاء دينه ، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذي استأجرت فيه قاعتها . على انها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما في المقاضاة فيما تبقى عليها وردت الى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدا من حفظه وعولت على العمل ، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن تكون خادما بأحدها ، فلم يكن نصيبها غير الرد والاعراض ، فعادت الى منزلها تتعثر في ذيول الخيبة ، وما زالت تطالب فكرتها في استنباط عمل تعيش من ورائه ، حتى فتق لها الذهن أن تعاود حرفة الخياطة ، فكانت تخطط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب في يومها اثني عشر صليدا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين في احراز مسكة الحوباء (١)

وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء ، وتقلبت بها احوال العسر والمترية فجعلت فانتين تجلس اليها في كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش في الخلة (٢) والضيق

وليعلم القارىء أن وراء العيش القليل منزلة أخرى ، وهي العيش من لا شيء وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابرا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب في الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدائق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجا متنوعة

ولقد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة في فن الحياة فاستغنت عن النار في الشتاء وعن اللحوم في الطعام وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطاءها ثوبها ، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذي ينفذ من طاق جاراها

(١) الحوباء النفس

(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة

وكانت تقول لجارتها وهى تحدثها : « انى لأقضى عامة النهار
وثلاثى الليل وأنا أخيط ، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من
الخبز اليسير ، وانى بحمد الله حزينه القلب كسيره الخاطر
ومن كان حاله كحالى من الهم ، كان خليقا أن لا يتناول غير
القليل من الزاد ، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأتقدم بهذا
الهم الكثير ، وأجد منهما غداء أمسك به النفس ، واحفظ به
الحياة ! »

وفى تلك الضائقة التى يخرج احتمالها عن طاقة البشر
كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها، فتجد لذلك سرورا لا يعادله
عندها شيء فيدعوها الشوق اليها الى طلب استحضارها
من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : « أى ذنب جنته
تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هذا البؤس ،
وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤسا فمن أين لى نفقة
الطريق ووفاء ما على من الديون لأصحاب النزل حتى
استخلصها من أيديهم ؟ ان هذا الأمل بعيد »

وكانت تلك المرأة التى علمتها دروس الحياة من ذوات
النفوس العالية ، وأهل العفة والقناعة تسدى المعرفة الى
الفقر والغنى ، وتفعل الخير لأجل الخير ، ولا تعلم من الكتابة
غير رسم امضائها وتقول أن الله موجود ولا تعرف غير ذلك
وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل
بهم الدهر الى الحضيض ستعلو بهم ذات يوم الى عنان
السما ، فان لكل يوم غدا

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس
اليها ، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز
والاحتياج ، فلزمت بيتها زمنا طويلا ، وكانت اذا دعتها
الحاجة للخروج لابتياح شيء أو قضاء أمر مشت فى الطريق
وهى كاسفة البال تود لو ساخت بها الأرض لتختفى عن
أنظار المارة ، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع
أقدامها ويشيرون بالأصابع الى رث ثيابها ، فتفرض من



نظرها ، وتحت قدميها للهروب من تلك النظرات التي
اخترقت اهابها وأدمت فؤادها . ولو كانت تلك البائسة
بباريس لما لفتت اليها نظرا ولا استوقفت ناظرا ولأرخت
عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون ، ولكن في أمثال
تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة
الناس

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهي تروض نفسها على
احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء
حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشعور من
نفسها ، وصارت تمشي في الطريق وهي طارحة رداء الحجل
لا تبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات ، وكانت تلازم
ثغرها ابتسامة الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة ،
وتنأى بجانبها عن الناس شاحخة الأنف عالية الرأس
وكانت كلما لمحتها مدام (فيكتريان) حاسبها الله وهي
تمرح في قد (١) تلك الخلعة والضيق ، وتمشي هذه المشية في
الطريق ، حمدت مغبة عملها وأثنت على نفسها اذ حالت بين
تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل سعايتها الى ذلك
الشقاء ، ومن الناس من لا يجد سروره الا في ألم غيره
نفوس فطرت على الشر فلا يصفوها لمورد السعادة ما لم
تشبه شائبة من الأذى



قلنا أن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثي الليل وهي
عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الإفراط
من عزمها وزاد في ذلك السعال الذي كان جالسا في صدرها
فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر
ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط

(١) القد هو القدر ، والقامة

الذي اسقط الدهر أسنانه ، فكان أشبه الأشياء بثغر
الأرد (١) فنظرت جمال فرعها المرسل أرسل الحرير ،
اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة
السرور

وكانت قد خرجت من المصنع في أخريات الشتاء فانصرم
الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته ، فاذا
الشتاء التالي يقرع باب فانتين قرعا يندرها بيوم قصير
وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه
بمسائه ، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء ، وسماء
مكفهرة الأرجاء ، وعيش كثير المؤونة ، وفصل هو حرب
الفقر وهلاك الضعيف ، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب
المعدة الغذاء والجسم الرداء ، ويتلمس المقرور النار ويضيق
بصاحب الكفاف رحب الدار

فصل يحول الأفئدة الى صخور ، ويرد السائل الى جمار
قد دهم فانتين وهى بين الخلعة (٢) والقلعة فزاد في دينها
وكساد حرفتها ، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط
القضاء ، وألح صاحب النزل قاتله الله في طلب النفقة
والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين في حياتها وحب
اليها قرب يومها

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت
عارية الجسد ، وأنها ان لم تتداركها بأرسال أربعين قرشا
لأبتياح لباس لها ، فهى هالكة لا محالة . فوقع ذلك الكتاب
في نفس فانتين وأحزنها طول يومها ، ولما كان المساء انطلقت
الى حانوت حلاق ، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى
كان يمسك شعرها ، فانسدل على ظهرها وستر أردافها ،
فصاح الحلاق : لله ما أجمل ذلك الشعر ! فقالت فانتين : « انظر
كم تدفع من الثمن اذا بعته » قال : « أربعون قرشا »

(١) درد الرجل ذهب أسنانه ، فهو أرد

(٢) بين الحاجة والجذب

قالت : « عجل بقصه » فقام الرجل الى مقصه ، وأهوى به على شعرها وأعطاهما الثمن فاشتريت به لساعتها لباسا وبعثت به الى طفلتها . فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لأنه كان يطمع في الدراهم لا في اللباس . فأعطاه الى احدى بنتيه وبقيت كوزيت في جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد ، كل ذلك وأمها تظن أنها باتت تمروح في ذلك الكساء الجديد ، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الألم الشديد



وكانت فانتين كلما أحست بألم فراق شعرها، وجدت لذلك بعض العزاء لأنها لم تفقد ذلك الشعر الا لتحفظ حياة تلك الطفلة

وتمر بها ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلئ حقا على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول (مادلين) ذلك الذي كانت تشاطر الناس محبته بالأمس ، وقد أصبح اليوم من أبغض الناس اليها لكثرة ما سمعت من أنه هو الذي أمر بإبعادها ، وأنه أصل شقائها وسبب بلائها

وكانت كلما مرت أمام ذلك المصنع تكلفت السرور والابتسام وجعلت تغنى غناء رخي البال رضى الحال توهم بذلك أهل المصنع أنها اليوم أنعم بالا منها بالأمس ، وما خفى عن أصحاب المصنع أمرها فقد قالت احدى عجائز الأجيريات حين لمحت فانتين وهى على تلك الحال : « ويل لهذه الفتاة من سوء المصير »

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حدثت نفسها أن تتخذ لها عشيقا جديدا ، وقررت أن يكون أول من تلقاه في طريقها كائنا من كان . فوقف نصيبها على موسيقار ، رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف ، وسائل

يستكف لا يعرف العشق ولا يفقه معنى المداعبة ، فطارحته
فانتين حديث الغرام فلم تره يحن الى شيء من ذلك ، على
انه ما لبث أن هجرها بعد ان ضربها ونهرها

فخلا فؤادها من كل حب الا حب طفلتها ، فكانت تراها
في ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع في سماء آمالها ، نقول
« آمالها » لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال
التي تلوح لها بوارقها في جو الخيال

ولو وقف يؤسها عند هذا الحد لأطاعت حمله ، ولكن
صاحب النزول كان يزيد في ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد
كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة ، وأنها ان لم تسارع
بارسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فانه يخشى
عليها عادية الموت . ولا تسئل عما حل بها حين أخذ نظرها
ذلك الكتاب فقد خرج بها من الألم عن حد الإدراك، فجعلت
تضحك وتهذى ، وخرجت تطفر في الطريق طفر الأطفال ،
وتضحك ضحك الأبله المعتوه وتقول لنفسها : « قطعتان من
الذهب . . اللهم غفرانك . . ان هؤلاء القوم لا يعقلون ! . . »
ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد
التفوا حول طبيب الأسنان يعرض عليهم أسرار صناعته
وما يلتحق بعلاج الأسنان وتنقيتها ونزع المتأكل من الأضراس
وغير ذلك . فاندست فانتين في غمارهم وهى لا تزال على
ذهولها تضحك ولا تعي ، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ
ثفرها : « أتبيعيننى أيتها الفتاة ثنييتك بقطعتين من الذهب »
قالت فانتين : « وما الثنيتان أيها الطبيب ؟ » قال : « هاتان
اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثفرك » فصاحت فانتين :
« غفرانك اللهم ان هذا لهو الضلال المبين » وكانت بجوارها
عجوز درداء (١) تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسها :
« قطعتان من العظم بقطعتين من الذهب ؟ لله ما أسعد تلك
الفتاة ! » . على أن فانتين لم تكذ تسمع كلام ذلك الطبيب

(١) سقطت أسنانها

حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفيتها
 ووضعت أصبعيها في أذنها كيلا يصل كلامه الى سمعها ،
 وهو مع ذلك يصيح في أثرها : « أيتها الحسناء تمهلي في الأمر
 واستوزعي فؤادك يلهمك القبول ، واعلمي أنك لم تغبني
 فيما عرضناه عليك من الثمن فاذا كان المساء فاغشيننا
 بدارنا بمكان كذا » . فوقع كلامه في أذنها برغم أصابعها ،
 وزاد في نفورها ، فانطلقت حتى اذا بلغت دارها عطفت على
 جارتها العجوز ، وهي أشد ما تكون غيظا ، فأخبرتها خبر
 الطبيب وما كان منه ، وقالت : « لقد بعنا الشعر لأنه يعود
 فينمو ، ولكن ما حيلتنا في الأسنان ومفقودها كما تعلمين
 لا يعود وهي حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال » ، ثم غادرتها
 وانكفأت الى حجرتها ، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر
 في مكانها حتى ندرت الابرة من يمينها ، فقامت مسرعة الى
 ذلك الكتاب المشؤوم وأعادت قراءته ورجعت الى جارتها
 تسألها عن معنى تلك الحمى ونتائجها ، فقالت لها : « انها
 مرض من الأمراض يعترى الكبير والصغير وهو اليوم أكثر
 وقوعا في الأطفال » فقالت فانتين : « وهل يجز هذا
 المرض الى القبر ؟ » فقالت : « نعم يجز الى القبر اذا تخلت
 عن المريض العناية » فخرجت فانتين من عندها وقرأت
 الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس . ولما
 توفي الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقها الى دار
 ذلك الطبيب ، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين . ودخلت
 جارتها في صباح الفد مبكرة اليها فألفتها جالسة فوق
 سريرها وهي شاحبة اللون ، ساهية الطرف ، تنطق بوجهها
 آثار السهر ، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها
 وبين ليل كان أطول من شعرها ، وأسود من حظها ، وعلى
 القرب منها شمعدان قد فئت شمعته ، وخلفت على
 جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهب وجدها القر
 وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذي يقطع نياط القلوب

جزعا وتنادى : « ويلي عليك أيتها البائسة تشعلين الشمعة كلها في ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر ، ومالي أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس ! » فالتفت إليها فانتين وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية ، فأخذت من سباتها وبلغت منها ما لم يبلغه كرم الفداة ومر العشى عشرة أعوام كاملة ، فتقول لها : « ليس بى بحمد الله من شيء ، ومن هو أولى براحة البال منى ؟ قد امكننى الله من انقاذ طفلى من يد الموت بهذا الذهب . وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها ، فتصيح : « اللهم انها ثروة ، فمن أين لك هذا ، وقد عهدتكم بالأمس لا تعرفين وجه الفضة ؟ » فتبسم فانتين ابتسامة تنم عن لعب دام قد لوث ركنى شفيتها وثغرة مظلمة فى وسط ذلك الثغر المضى ، فتعلم جارتها كما علم القارىء أن تلك الثغرة المظلمة هى مكان تينك اللؤلؤتين



وانطوى خداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين ، فوجهت اليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف ، ولكنه شرك قد مده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها ، ولؤلؤ ثغرها ، وأصبحت عطلا من الحلى والجمال ، فكسرت تلك المراآة التى كانت تجدد فى النظر اليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها ، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية الى قاعة اخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين ، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض اذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت اثقال العيش وأعباء الحياة ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طرحت على الأرض

وخلقته (١) كانت تسميها غطاء ، وكرسى قد نزع تقادم
 العهد أحشاءه ، وجرة كنت ترى الماء فيها تارة سائلا
 وأخرى جليدا ، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها ،
 وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج
 في الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم قد أهملت
 رتق فتوقه ، وأغفلت سد خروقه . وما أدري أكان ذلك
 لضيق في وقتها ولعدم اعتناء منها بأمرها ، وهي تنتعل
 حذاء قد كشر عن نابيه ، تحت جورب قد نصل عن خضابه
 يحيط بخصرها نطاق بال مرقع ، يكاد إذا تنفست فيه يتقطع
 وتنكفيء الى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ،
 وعبست الخيبة في وجه أملها ، واشتد الأمر وضاق ، وتقابلت
 حلقات الوثاق ، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار ، ولزمها
 ملازمة غرمائها بالليل والنهار ، فتقضى فحمة الظلام ، منفرة
 المنام سميرة الآلام ، حاضرة الدموع غائبة الهجوع ، وتفنئ
 شمعة النهار بين وخز الابر ووكز الفكر وقد قدر عليها
 الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها ، وهبطت أسعار
 الأجور فنزل أجرها في اليوم من اثني عشر صليدا الى تسعة
 فاستحال عليها امساك الرمق بهذا القدر اليسير . على أن
 طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك ، ولو وقف بؤسها
 عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ، ولكن صاحب النزل قد
 خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية
 ويقول لها في كتابه : « لقد عينا بأمر طفلتك وصبرنا منك
 على ما تعلمين فان لم تسارعي بارسال هذا القدر من المال
 نبذنا (كوزيت) بالعراء ، وطرحنا بها في مساقط القضاء ،
 فهي ان أخطأها برد الشتاء ، فليس يخطئها نازل البلاء ،
 ولقد أبلت اليوم من مرضها ، ولكنه أبلال يعقبه الموت ان
 فاتك في أمرها الفوت »

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع في نفس الجريح من ذلك

(١) قطعة قماش ، بالية

الكتاب في نفس فانتين ، فانها قالت بعد تلاوته : « اللهم انك تعلم اننى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس ، وصبرت حتى ملنى الصبر ، وقد كانت لى صباية عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى انضبتها ، اللهم لم يبق الا العرض ، وقد امست تساومنى فيه الأيام ، فلا راد لقضائك ، ولا مذهب من ورائك » . . !



أبى قدر الله الا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف وأن لا تركب فانتين غير سبيل الخسارة ، فابتذلت خدرها ، وباعت عرضها ، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الانسانى أمة فاشتراها . عرضها عليه فى سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد ، وكان فيها من الزاهدين ، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم ، وزادت فى أسرهم . نفس حرة تباع بكسرة ، وعرض مغبون فيه يتساومون ، ولا زلنا نسمع على هذه المدنية آيات المدح والثناء ، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى أنحاء البلاد ، برفع الرق والاستعباد ، عن رقاب العباد . أين كتاب السيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح ؟ . طليتم وجه مدنيتم بطلاء من كلماته ، وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته ، فتناول حكمه منكم الظواهر ، ووقف عن تناول ما فى السرائر . . أوهتمتم الناس بانطواء أجل الرق ، وفاتكم أنه وان خف حمله عن أعناق الرجال ، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء

تملق المرأة فتجوع وتعرى ، فتركن الى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها ، فتفرع الى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر ، فتبيع الناس نفسها ، فيتنافسون فى المساومة ، حتى اذا ظفروا بامتلاك تلك



النفس المعروضة في سوق الشقاء ، سجلوا عليها فعلتها
تلك في باب الزناء ، وتفاضوا عن تسجيلها في باب الرق وهو
بها أحق وهي به الصق

ويل للمرأة من الرجل يسترقها . وما يدرية ما المرأة .
هي وعاء النسل وظرف الحمل ، هي زينة الحياة ، وزهرة
الجنة ، هي بيت الجمال وموطن الدلال . هي مسكن الضعف
ومهبط العطف ، فبالله ما أكثر مخازي الرجال

ذلك مثل فانتين في ابتدائها لخدرها بعد أن نزلت من
المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن
تصويرها ، وبعد أن أندرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم
وأندرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود ، فتسكنت في
الضلالة وتبسطت على الاثم ، وتمرغت في حماة الغي ،
فخوى هيكلها من روح الشعور ، وكتب اليأس على لوح
صدرها المثلوج قول ذلك الحكيم : « لا رغبة ولا رهبة » ،
فأصبحت لا تخشى نازلا ، وأمست لا ترجو نائلا ، وباتت
لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى

مر بها زمن وهي تصابر القضاء ، وتنازع الشقاء ، وتعانق
الخطوب وتصافح الكروب ، وتصبر على ذلك صبورا ، كان
أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالنام ، فلم تنتفع بصبرها ،
ولم تخرج من عسرها ، فما عساها تحذر اليوم وهي
كالأسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحائها سيان أن
طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى !



توجد بعامة القرى الصغيرة ، وخاصة القرية التي
تسكنها اليوم (فانتين) طبقة من نشء الشبان العاطلين
الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوي ، وإن أحدهم
ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه

ساكن باريز ، أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروي ، وقد
جمعت هذه الطبقة في قريتنا تلك من أمثال هؤلاء العاطلين
عددا كبيرا فتراهم يجلسون في صدور المجالس ، وقد
نفخ شيطان العظيمة في معاطسهم ، فجعلوا يتفاخرون
بما ملكت ايمانهم : فمن تياه بكثرة رجاله ، ومن مدل بوفرة
ماله ، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه ، ومن مولع
بالتفنن في أساليب كلامه : يتحرش أحدهم برجال الشرطة
فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر الى المشاجرة ، فيقال فلان
لا يعبأ برجال الحكومة ، وينطلق الآخر الى التصيد والاقتناص
كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل الى الصيد ومنهم من
يتورن (١) ويتزين فهو أين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل
الناس بذكره ، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس في الأندية
حيث يفد السائحون

نعم وفيهم المتغالى في التقليد ، والمولع بالجديد ، والذي
لا يرى نفسه ظريفا الا اذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع
النساء ، فتأنق في التعريض بهن واستهتر في تقريعهن

وكان الظرفاء في هذا العهد يغالون في البزة ويتأنقون في
الزى ، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة
الأزرار ، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها
مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رؤوسهم قبعات عالية
البنيان كزة الأطراف ، فوق شعر جعد كثيف ، وبأيديهم
عصى غليظة كأنها الجذوع دع الشوارب الطوال ، والزريق
المرتفع ، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره
سواء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية - نشأ بين أفراد
تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم ، وكان مثله

(١) تورن أى تعطر فأسرف في التعطر



كمثلهم : دخل قليل وعقل يسير ، وسفه يوازنهما ، ونزق يعادلها

اتفق أن وقف ذلك المفرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفي فمه لفيفة من الطباقي ، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد

وتمر أمامه فانتين وهي عارية الأكتاف ، وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء في المراقص ، وكانت تلك عاداتها منذ نصف عام

تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق ، فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسى يحفظ السبيل ، أو جندي أذنّب فكان عقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهوبا ، ويتعمد ذلك المفرور كلما مرت أمامه اغاظتها ويتحرى اهانتها فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظا من الاهانة والسباب فيقول : ما أبشع هذا الوجه وما أخلق حامل ذلك الثغر الأدرد بالانزواء عن أعين الناس ، وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لا تسمع فتنتلق في طريقها وتواصل سيرها فيه اقبالا وادبارا ، وهو في مكانه يكاد يقطر غيظا

ويحركه ذات مرة سكونها ، فينتلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة ، وهو يفت من ضحك المغيظ ويدانيها ، فيهوى بيده الى الأرض ، فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها ، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين الى مستدق الصلب ، فتزأ فانتين زئير اللبوة ، وتنفلت انفتال النمر ، وتنشب أظافرها في وجهه ، وهي تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله ادمان الخمر وأبحه الحزن ، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادى وثنى ، فيرون رجلا عارى الرأس يضطرب في يد امرأة مسلووبة الشعر على الشعور ، والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على امساكه ، وقد رنحته لظما ولكما وأتحفته بأنواع السباب



والشتائم ، فلم تبق في اللغة كلمة تشير الى بذاءة او لفظة تدل على لعنة الا ورمته بها من ذلك الثغر الأدرد

ويقف الناس حولهما صفوفا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه ، وكلهم يتساءلون عن مشار تلك المعركة القائمة ، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة ، فيجذب المرأة من نطاقها ، ويصيح بها : « انطلقى على أثرى » . وترفع فانتين عينها وترى شخص (جافير) فيخفت صوتها وتصفر احداقها وتتزايل أعضاؤها وتمشى خلفه بين الذلة والانكسار ، وينتهز الشاب تلك النهضة فيختفى وينقضي ذلك المشهد

— سار جافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته الى مخفر الشرطة ، فلما بلغه أمر بالباب ففتح وبالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر ، وانزوت فانتين في أحد الأركان كالكلبة راعها مروع ، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشربون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الأمر

وكانت شريعة ذلك العهد تقضى بوضع تلك الطبقة من النساء تحت تصرف المطلق لرجال الشرطة ، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى ، ويصادرونهن في حرفتهن المنكودة وحريتهن الموهومة

فأكب جافير على الكتابة وهو أشد ما يكون غيظا وما نسي القارئ ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذي ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثير الى نفسه سبيلا ، ولكنه قد غلب في هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل أمامه مدى سلطته ، ونفت في يراعه سم غيظه ، فكان يكتب وحنقه في عنفوان شبابه وجرم تلك البغى يتجسم أمام عينيه ، حتى اذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة وأمرهم أن

يقودوا فانتين الى السجن ، وقال لها : « ستلبشين هناك ستة أشهر »

فارتعدت فرائصها وهمت بالنهوض فخانها العزم
فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة
بطلاء من الوحل، وجعلت تضرع اليه وتستدر رحمته وتقول :
« ستة أشهر ؟ اللهم غفرا . ان في ذلك لهلاكاً لطفلة ليس لها
سواي من عائل ، فاتق الله في ضعفي وراقبه في حياة تلك
الطفلة ، ولو أنك ألمت بمبدأ الأمر لتضاءل في عينيك منتهاه ،
فاصرف نظرك تلقاء ظلامتي فان كنت قد أجرمت بعدها
فعلى اجرامي ، واني لأستعدي بك على ذلك الشاب الذي
وترني على غير معرفة مني به - لمحنى أسبهل (١) في الطريق
فجعل يتحرش بي وأنا أصابره حتى اذا أعياه الأمر عمد الى
قبضة من البرد فدسها بين ثوبي وظهري على غفلة مني ،
فوجدت لذلك ألماً أخرجني عن حد الرشد ، ففعلت به
ما فعلت ، وأنا بمنزلة بين الألم والذهول - وما ظنك أيها
الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الأذى
تحت هذا الليل في هذا الشتاء ؟ أتراها كانت تحلم أم تطيش ؟
فان كان بعض الطيش قد أدركني ، فانما وقع ذلك لفرط
الألم ، وضعف التحمل

ألا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتي فيظهر براءتي ؟ .
ألا يعود ذلك الشاب الذي اختفى ، فأعذر اليه من فعلى ،
وان كان هو البادي بالاساءة ؟ .. ألا منقذ لي من هذا
السجن الذي سيجر الى طرد طفلي من النزل ، فتموت
تحت العراء ؟ فيا ليت شعري كيف أغذوها ، وأنا لا أكسب
في السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها ؟ فلك الله
أيتها الطفلة المنكودة ولي الله من بئسة نزل بها العسر الى
تلك المنزلة من الحياة . فوالله ما كان هذا الفحش من أمري ،

(١) أسبهل أي أقبل وادبر في الطريق لغير شيء وهو ما يسميه العامة
« ضرب بلطة »



ولكن هي الحاجة ترمى بصاحبها الى مرامى الهلاك، فلا تفرط
علينا وكن من الراحمين »

تقول ذلك بصوت خنقه البكاء وأنفاس قطعها الشهيق .
كأنها محتضر قد أخذه النزاع ، وهي عارية العنق مفتولة
اليدين وقد أشرق محياها اشراقا ظهرت معه في أعلى مجالى
الجمال - ولا بدع فان الآلام اذا بلغت مداها انبعثت من أثنائها
نور سماوى وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض ،
ثم دنت منه فقبلت طرف ردائه . ولو أنها ضرعت كذلك
الى رجل قد قد من حجر الصوان قلبه ذاب لها رافة ،
ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب ، فهو لا يعطفه التوسل ،
ولا ينال منه التذل

أوتدرى أيها القارىء ماذا كان جوابه لها بعد الذى
سطرناه تحت نظرك ؟ كان جوابه أن قال لها : « لقد وعيت
حديثك فانطلقى الى السجن فيه حكمت عليك ، وقد
استحال غير ما حكمت ، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم
لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت »

قال ذاك ثم ولاها ظهره فجمدت في مكانها وتحرك الجند
وانهم ليهمون بجرحها وما تصل أيديهم اليها ، اذ وثب من
جانب المخفر الأيمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم :
« مكانكم أيها الجند ! » فمد جافير بصره ، فاذا به يرى مادلين ،
فحياء تحية الكاره لرؤيته وقال بصوت الكاظم لفيظه : « عفوا
سيدى الشيخ » . وما وقعت تلك الكلمة في سمع فانتين حتى
انتفضت في مكانها فدفعت عنها الجند مهرولة الى مادلين ،
ولما تبينت وجهه صاحت به وهي تفرق في الضحك : « أهذا
هو أنت ؟ » ثم بصقت في وجهه وانقلبت الى مكانها ، فمسح
مادلين وجهه وقال لجافير : « خل أيها المفتش سبيل هذه
المرأة »

كل ذلك يجرى وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع

وهو مكذب لسمعه ، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت
أولاهما بصوابه وفلت الاخرى غرب ارادته ، فلبث في مكانه
برهة أعوزه فيها النطق واكثر طائر حلمه الدهشة
والذهول - نظر امرأة تبصق في وجه شيخ جليل والمرأة
من البغايا والرجل من أولى الأمر فتهم للوهلة الاولى نظره
وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أرواح ما يكون
بالا ، ويأمر باخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه

ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه ، فانها لم تكذ تسمع
قول مادلين حتى دنت الى الباب وجعلت تعالج فتحه
وتتهيا للخروج ، وهى تقول كمن يكلم نفسه :

- أيسرحوننى فلا أسجن ؟ ومن ذا الذى يستطيع ذلك
ولقد سمعت بأذنى الأمر بالسجن ، ووعيت ما سمعت ؟
فلئن كنت قد طرق سمعى بعده أمر بالافراج فقد كذبتنى
الأذن ، اللهم الا اذا كان جافير هو الأمر ، أما ذلك الشيخ
المريب فليس له من الأمر شيء ، وما أدري ما الذى حداه
الى الحضور ، أو ما كفاه طردى من مصنعه وخروجى عن
أفق العفة والصيانة وهبوطى الى تلك المنزلة ؟ ولقد كنت
أعمل فى مصنعه ، فأصيب رزقى بين العفة والكفاف ، فأبى
الا أن يكون أداة للسعاية بى ، فأخرجنى حين لا موئل
ولا وجه للرزق ، وحملنى بظلمه على ركوب تلك الطريق .
ويعلم الله أنى ركبته وأنا كارهة لركوبها ، ولكنها سبيل
مضطر عديم ، ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون
واشتطاطهم فى طلب النفقة لتلك الطفلة ، وكساد الحرفة
التى أزاولها ، لتماسكت وان زعزعتى الدهر ، وبالفت فى
تطفيف قوتى الأيام والليالى

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده الى جيبه وينزع
منه كيسه ، ويجده خاليا ، فيرده الى مكانه ويقول لها :
« خبرينى كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة ؟ » فتقول له : « اليك



عنى أيها الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا » ثم تلتفت الى جافير فتحاسنه في الخطاب ، وتنتقص أمامه من قدر مادلين ، وتشرح له سوء مغبتها ان هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه ، وتعوذ به من عقابه ، وتنتهى بقولها : « ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى ألا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى » ثم تولى الى الباب وتضع يدها على غلقه

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود الى نفسه ويخرج من جمود كان في أثائه كالصنم ، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر : « يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها ؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن أيامها رغم المعارضين ! »

وكان مادلين مصغيا كل الاصغاء لما دار بينهما من الحديث ، فالتفت الى جافير ، وقال له : « اعلم أيها المفتش انى أنا الذى أمر بتسريح هذه المرأة ، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة ، فانى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم ، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادىء بالاساءة ، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة »

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويفالب اضطراب نفسه : « ان تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فانها أهانت فتى شريفا وأذت شيخا جليلا ، فلئن كانت قد أعذرت فى الاولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية ؟ »

قال مادلين : « أما عن الاولى فقد صدقتك الخبر ، وأما عن الثانية ، فان الأمر لمختص بى ، والعقب متعلق بارادتى ، فاما عفوا بعد واما جزاء ! »

قال جافير : « عفوا يا سيدى ان الأمر لا يقتصر على شخصك ، ولكنه يتناول العدل كله ، وبمثل هذا العمل

وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة «
قال مادلين : « اعلم أن العدل نوعان : عدل يجرى به
الوجدان ، وعدل تجرى به الشريعة . ومن كان صادق
الوجدان ، كان خليقا بالتوفيق الى سبيل الحق . ولقد وفقني
الله الى استبطان أمر هذه الفتاة ، وألهمني الوجدان براءتها .
فلا يستطردن بك جواد العناد في سبيل ايدائها ، فانك لن
تنالها بسوء وأنا من الشاهدين »

قال : « انى لأرانى غير قادر على فهم ما أسمع وما أرى ! »

قال : « فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم » . . . !

قال : « انى لأخضع للواجب وهو يدفعنى الى وجوب
الاصرار على سجن هذه الفتاة ستة اشهر » !

قال : « بل يدفعك الى اخلاء سبيلها ، فلا تسجن يوما
واحدا »

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عند حد اليأس من
اقناعك ، فانى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة ،
ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى اياك ، فانى لأمادك حبل المقاومة
في شأن هذه البغى ، وما وقع لى قبل اليوم أن أقاوم
مشيئة الرئيس . ولكن المامى بواقعة الحال وتشبتي من الأمر
ودخول الحادثة في دائرة اختصاص الشرطة التى أنا كبيرها -
كل أولئك يدفعنى الى سجن هذه الفتاة » !

وما كاد ينتهى من قوله حتى تقطب وجه مادلين بعد
ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له
بصوت سبقتة الى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه
الحدة : « لقد أسمعتنى أن الحادثة تدخل في دائرة اختصاص
الشرطة التى أنت كبيرها . وأسمعك الساعة أن المادة
التاسعة وأخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة
بعد الستين من قانون العقوبات ، تقضى بأن أكون القاضى

المطلق . فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة فانتين وأمر بتسريحها

« وأزيدك بى علما وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت »

فاستقبل جافير هذه الضربة الأخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود أسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الأرض بوجهه ، وخرج وما ينظر ما بين يديه غما . ومر (بفانتين) فالتصقت بعصاة الباب لتخلى له السبيل ، ولبثت فى مكانها ، كأنها بعض الأنصاب ، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت بأذيال الاول نجاتها وكمن تحت رداء الثانى هلاكها - هذا يصعد بها الى مراقى الهناء ، وذاك ينزل بها الى درك الشقاء وهى بينهما كالأكرة اذا قذف بها الثانى الى ظلمة اليأس ، ردها الاول الى نور الأمل . كأن أحدهما ملك يكلاها ، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخطبها بمس منه . وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها . على أنها ما لبثت بعد الذى قد رآته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على أراذله السبيل أن أخذت تحاسب نفسها وتقول : « لى الويل لشدما كنت أنفر من ذلك الرجل ، وأحمل ضب الضغن وأعزو الى فعله سوء ما وصل اليه امرى من الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفع وهو قادر على غير الصفح ، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمتاضلة دونى . فلا أحسبني بعد ذلك الا وأهمة فى أمره جاهلة مقدار خطره - أو ليس



الذى قد غلب جافير على أمره بقادر على أن يحول بلفظ
منه بينى وبين الهناء ، فأموت فى السجن حزينة ، وتموت
بموتى تلك الطفلة اليتيمة ؟ اللهم ان هذا هو الخلق الكريم
وتلك هى النفس الزكية ! »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدتها يتحئل فى صدرها
ووجدتها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن
فيها ، حتى أصبح النفور ميلا واليغض حبا ، وحتى أدركتها
الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل ،
فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء



ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين الى فانتين
وقال لها وهو يفيض من عبرته ، ويخفى من حسرته : « لقد
وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك ، فما منعك أن
تنفضى الينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع ؟
واو فعلت لأنصفناك . ولكن أبى الله ألا أن يجرى القدر بما
شاء ، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بى ، فانى كافلك وجامع
بينك وبين طفلتك ورادك الى طاعة الله بحفاظك على عرضك ،
وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا
تبخى (١) نفسك أسفا على أثر ماضيك ، فان صبح ماتقولين
ولا اخالك الا صادقة فيه ، فانك لم تخذشى وجه العفاف ،
وام تعقى الفضيلة ، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة
الا طاهرة الذيل عفيفة الازار »

وما انتهى مادلين من قوله حتى تمثل لها مستقبل حياتها ،
فراة جنة يمس فيها النعيم وتجري من تحتها أنهار
السعادة ، ورأت نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف ،
وتتكىء على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة

(١) أى لا تهلكى نفسك

وتزاحمت على نفسها جيوش الأمانى فخرج بها السرور
عن حد الإدراك وتراامت على يد مادلين تقبلها ، ثم غابت عن
الوجود فأمر بها مادلين ، فحملت الى دار المرضى التى أقامها
بجوار داره . فأنيمت فيها ، وأوصى بالعناية بها وانصرف
الى عمله

وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغيونة فى نفسها فمر
بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم
فنامت حتى أظهر (١) النهار أو كاد ، وشعرت عند يقظتها
كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس ، فكشفت جانب
الستار ، فإذا هى ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره
كالراهب المتبتل يضرع الى شىء فوق رأسه ، فأرسلت
بصرها حيث يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع الى صليب
كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته ، وظهر لها فى هذا
الموقف ، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى فكرهت
أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة ، ثم قالت له بصوت
يكاد يخفيه الحياء : « ما الذى يصنع سيدى هناك » فأجابها
وهو يومئ الى الصليب : « جئت أصلى لذلك الشهيد فى
السماء » . ولو أنصف لقال : « لتلك الشهيدة فى الارض »
وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدا والسؤال
عنها فما يستقر فى حجرته الا ريثما يعود لتنسم أخبارها
فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا ينصرم عمرها ،
وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن
بجفن



وننتقل بالقارىء من حجرة مادلين الى حجرة جافير ،
فيرى رجلا قد أقامه الحقد ، وأقعده الحرد (٢) ، يكاد ينشق

(١) أظهر النهار اذا كان وقت الظهيرة

(٢) الغضب الشديد

غيظا ويقطر غضبا على اثر تلك الضربة التي تلقاها بصدرة
الرحيب في مخفر الشرطة ، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور ،
ويملم تمللم الموتور قد أمسك يراعا وأنشأ يسطر كل ما
أملت عليه الموجدة وأوحى اليه الضغن

وفي صباح تلك الليلة بكر جافير الى صندوق البريد ،
فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذي سطره بحجراته ، وعنون
غلافه الى كبير الشرطة بباريس

وما قرأ هذا العنوان قارئ وكان ممن يعرفون جافير
وكتابتة ، ألا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الاقالة
على اثر حادثة الأمس

ولما استنار مادلين دفائن (فانتين) وعلم بحقيقة أمرها ،
والم بأطراف تلك المؤامرة التي كانت سببا في خروجها من
المصنع ونزولها الى تلك المنزلة من الحياة ، سارع بارسال
كتاب الى أصحاب النزل يطلب فيه أشخاص (كوزيت)
ووجه اليهم بقدر من المال يبلغ مثلي ما كانوا يطالبونها
وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة باحضار الولد



وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى ،
فقال لزوجه وهو يتהלل فرحا :

لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعنى فانتين) ، واكبر
ظنى انها ترتع اليوم في ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح
هذه الفرصة ، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل
ذلك الضرع . وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع
ويخبر عن كرم . وانى لأتنسم منه ريح الأصرار ، وأرى بين
سطوره جداول يجرى فيها الكسب وتسيل السعادة ،
فأحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة ، واحذرى ان تطير فان
في امساكها اطلاقا لأرزاقنا » ، ثم قام الى دفتر ، فزور فيه

كل ما زعم أنه أنفقه على (كوزيت) من أجر الطبيب ، و ثمن الدواء ، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملى عليه الطمع ، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل مادلين وفي اليوم التالي وجه مادلين الى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب اليهم المساعدة بارسال الطفلة فقال الرجل لزوجته : « ألم أنبئك بما سيكون من أمرهم ، اذا نحن أحسنا حفظ هذا الكنز الثمين ، فانظري كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بارسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه ، فلنمسكن الطفلة حتى حين ! »

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفئ سراج حياتها شيئا فشيئا ، ويدنو منها الموت يوما يوما ، وقد اثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم ، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانها ، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين

وما خفى على الطبيب أمرها ، فانه أنذر مادلين بقرب أجلها وقال له : « انى أراها هامة اليوم او غد ، فان كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه ان كان من الغائبين ، فانكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها » فجزع مادلين جزعا شديدا ، وأشفق أن تموت الوالدة ، قبل أن ترى الولد ، فقام لساعته الى ورقة وكتب فيها الى أصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

« اذا أتاكم رسولى حامل هذا ، فادفعوا اليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها » وارتأى أن يكون هو الرسول الى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وصحت عزيمة على السفر . فبكر من غده الى دار حكمه ، وجلس لانجاز شغله وأراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الأعمال ، وانجز فى يومه ما يطالبه به الغد وانه ليتصفح الأوراق وينظر فى الشؤون اذ جرت جوار

بالنحوس ، وعدت عواد بالشرور ، ووقع في حساب القدر
ما لم يقع في حساب مادلين ، فقليل له أن جافير بالبواب يطلب
الاذن بالدخول . فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت
به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم فتطير ،
وتضعضت حاله وكاد يعجز عن المداواة ، ولكنه رد النفس
على مكروهاها فاستقرت ، وأذن لجافير بالدخول ، وكان
اذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر في أوراق محاضر المخالفات
ويعلق عليها ما شاء تعليقه

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين ،
ولبت واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص
ينتظر الاذن بالكلام . . كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره ،
ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف

ولو ان أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتي الساعة
وينظر الى جافير وهو راسخ في مكانه ، وكان يكون من
المخالطين له ، والواقفين على أسرار طبائعه ، والعالمين بتقلبات
هذا المخلوق الذي بينا نراه في لباس الجندي المحارب ، اذ هو
في ثياب الزاهد الراهب ، لركن عند رؤيته ، وتفرس في
مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين ،
قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل ، وقال
لأمر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المستكين ،
وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الفصة



وفي الواقع كانت سحنة جافير تنم عما في ضميره فما مر
بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس ،
الا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء

قلنا انه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما
وما زال واقفا خلفه موقف الجندي في صفوف النظام

لا تنبعث له جارحة ولا تطرف عين ، وقد فارقت محاجره
تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك ، فامتزج بأشعة بصره
نور الاخلاص وجمال في محياه ماء الخشوع ، ونطقت ملامح
وجهه عن صبر لم تشبه مرارة ، وسكون لم تعره كلفة ،
حتى التفت اليه مادلين فرأى رجلا تبدو عليه سيما الانكسار ،
وتقرأ في عينيه آية الحزن ، قد احتشم احتشام الجندي أمام
القائد ، والمجرم بين يدي القاضي ، فقال له : « ما خطبك
أيها المفتش ؟ »

فلبت جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو اليه حصاته ،
ثم اندفع قائلاً بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة
من الشمم :

جئت انهي الى سيدي خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم
قال مادلين : « وما عسى أن تكون تلك الجريمة ؟ »
قال : « ان أحد عمال الحكومة الأدياء قد رمى بعض سراة
القضاة في شرفه ، وطعن عليه في سمعته ، فدفعني الواجب
الى رفع الأمر اليك » . قال : « أتعلم من هما ... ؟ »
قال : « ما أعلمني بهما . أما المقترف فأنا ، وأما المقترف
عليه فأنت »

وما وقع في سمع مادلين الخبر حتى وقع في نفسه
شيء من الضجر ، فتململ في مكانه ، واندفع جافير في حديثه
فقال :

— انى لأطلب اليك رفع امرى الى الحكومة لأنال من
عقابها ما يكفر عن خطيئتي ، ولا تعجبين لعدم التماسي الاقالة ،
فاننى ان فعلت ذلك خرجت خروجا . ولا يلحقني معه العار .
ولكننى خليك بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملوما
مدحورا

« ولقد كنت معى بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء ، وانت
من الحق أعزل ، فلتكنه معى اليوم وانت شاكى سلاح الحق
ثاو بحسن الفضيلة »

قال مادلين : « لقد جعلتني بحيث أرى أنك أتيت عظيمًا وارتكبت جسيما ولا أذكر بيني وبينك أمرا يدعوك الى قول ما أسمع منذ اليوم ، ولقد أطلت في اتهامك لنفسك ، وبالفت في وصف اجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التي تزعم أنك فعلتها ؟ »

قال جافير : « رميتك في شرفك وخذشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس أمساكك وسجنك . وذكرت له في شقة رفعتها اليه أنك مجرم قديم ، وأنت ضالة الشرط التي تنشدها منذ حين ، ولقد كتبت ما كتبت وقسطي ممتلىء من المرة (١) الصفراء ، وغضبي يفور فوران الرجل على اثر حادثة تلك البغي التي غلبتني عليها ، ووقفت دونها تلك الوقفة التي قطعت على ارادتي السبيل »



ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله (مجرم قديم) ولكنه يتماسك . واستطرد جافير في حديثه فقال : « وما حملني على اتهامك أيها الشيخ الا آيات شهادتها وعلامات تحقققتها : رايتك شديد الفضل قوى الساعد شديد الرماية اذا رميت ، ولمحت بأحد فخذيك قدغا ، وقد تبينت منك الأولى يوم العجلة ، وما نسيت ما كان من دخولك تحتها ، وانقاذك حياة ذلك الشيخ الفاني ، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط اخبارك وشهدت الثالثة في مشيتك ، فألقى في روعي أنك (جان فالجان) »

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر (٢) من أنامله اليراع الذي يمسه فيقول وهو يغالب

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التي توجد في مرارة الانسان

(٢) ندر الشيء سقط . ينذر اليراع من أنامله يسقط

اضطرابه : « ومن هو ذلك الرجل ؟ » . فيجيبه جافير
« هو أحد أولئك الشطار الذين يعيشون في الأرض ، وقد
رايته منذ عشرين حولاً في سجن تولون ، وهو أشبه الناس
بك ، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة في
بيت أحد الصباد ، وجنى في الطريق على غلام صغير ،
فاغتصب منه ما أدرى أى شيء ، ثم انه اختفى بعد ذلك ،
فجدت الشرطة في طلبه ، وجد في اختفائه حتى إذا شجر
بينى وبينك الخصام في أمر (فانتين) وخرجت من موقفى
أمامك بذلك الخذلان ، حملنى الغيظ منك على اخذك بهذا
الرجل ، ومثل لى الحق أنك جان فالجان وكانت تلك الآيات
التي ذكرتها لك من أكبر البوائع على اتهامك فلا تكن من
الراحمين »

قال مادلين وهو يتسم ابتسامة الله أعلم بما يكمن
في أثنائها من المضمض : « وماذا كان جوابهم على كتابك ؟ »
قال : « كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون
وحسبونى محمقا ، ولقد أصابوا في رأيهم فى كما أصبت عين
الخطأ فى رأى فيك »

قال : « لقد أحسنوا فى جوابهم ، وأحسننت فى رجوعك
عن وساوسك » . قال : « وأعجب من ذلك أن الشرطة قد
أمسكت طريدها وعشرت على ضالتها ، ووقع جان فالجان
فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب »
فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به ، وما يريد
أن يصيح : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « قبضوا عليه وقد ظهر حائطا بأحدى الحقائق ،
واقترض فرعا من التفاح ، فسيق الى المخفر والفرع لا يزال
فى يده ، ثم أودعوه سجن الاحتياط ، وكادت تختفى حاله
فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن
أراد الله له سوء العاقبة

« فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه ، فأمر قاضي التحقيق بتحويل أهله الى السجن العام ، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا في أعماق السجون ، قد أكل سجن تولاون شطرا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثاني - شهدوا منه في آخر أيامه شيئا من الاستقامة ، وحسن السيرة ، فأقاموه سجانا ولما جىء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به : « ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألسنت جان فالجان رفيقى بالأمس في سجن تولاون ؟ »

فقال الرجل : « اتق الله يا أخى . . فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وانما أنا (شاماتيو) . . »

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود - وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع - فبعث كلام السجنان الشك في نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا الى معرفة الارض التى نبت فيها ، والحرفة التى كان يزاولها ، فاذا هو مشذب للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به في قرية (فافيرول) وأجهدت الشرطة نفسها في الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح فعمدوا الى البحث عن كان معه في السجن في ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود في السجون ، فأشخصوهما الى حيث يوجد ، فلم يلبثا أن عرفاه كما عرفه ذلك السجنان

« وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأناك فراءهم منى هذا الأمر فكتبوا الى ما كتبوا ورموني بالنزق والتسرع ، فكبر على الأمر وقلت في نفسى لعلمهم خدعوا في أمر هذا الرجل فتالله لأذهبن لأراه رأى العين ، فرغت روغة فاذا انا هناك فنظرت جان فالجان ورأيت نفس الرجل الذى شهدته



في سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندي مجال للشك
ولا مسرب للوسواس ، وعلمت اني جنيت عليك جناية
بضيق عنها العفو ، فلو اننى كنت موفقا في العمل وكنت
انت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود في السجن . وانك
لتعلم كيف يكون عقاب العائد الى الجريمة وخاصة ان كان
من اولئك المراقبين «



قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر في بعض الأوراق
ويقهر نفسه على التجلد والثبات : « ما لنا ولهذا الحديث
فان بنا من الاشتغال بشؤوننا ما لا نفرغ معه الى الاشتغال
بأمر الغير - اذهب يا جافير الى فلانة التي تبيع الخضر
بزاوية المكان الفلاني ، ومرها أن ترفع ظلامتها الينا » ، ثم
أمره بأوامر آخر ، فقال جافير : « وددت لو كانت لي في الوقت
فسحة ، فأقوم بامضاء أمرك فاني على عزم الرحيل في هذا
المساء لأشهد غدا مع الشاهدين ، فان غدا ليوم سيكون له
ما بعده يبرم فيه أمر جان فالجان ، ويعلو الحق على الباطل
وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم «

فأسود في عين مادلين ما بينه وبين جافير وقال وهو
يتكلف السكينة : « اني غد يخاصمون هذا الرجل ؟ » قال :
« نعم » . قال : « وكم يمتد أجل ذلك الخصام ؟ » . قال :
« يوما أو بعض يوم » . قال : « حسبك » . ثم اذن له
بالخروج فلبث جافير في مكانه وقال : « اني لأطلب اليك
الاقتصاص مني «

فرفع مادلين رأسه وقال : « اني ارى فيك حصافة
وارى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالكريم ، وكان
سبيله ان يعان على أمره ، وان يؤخذ بيده في زلته ، فلقد

عن لنا أن نترك في وظيفتك ورأينا أن الأمر أيسر مما في
نفسك ، فدع عنك هذا الاغراق في الطلب واستغفر لذنبك
ان كنت من الخاطئين » . فرفع اليه جافر طرفا قد جال
في انسانيه الاخلاص ونطق عما يكمن في نفسه من الوجدان .
وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه ، واستعار
الرقعة من شعوره : « اننى لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريسته ،
فلا أرى في موضعا للسماح » . قال مادلين : « ان كنت قد
أجرت فما وقع اجرامك على غيرى وما كان لأحد أن
يخاصمك وأنا من الصافحين »

قال : « عجت لمثلك كيف يصفح عن مثلى ، وقد حاولت
الايقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك ، فحنت
الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل ، ولو أننى فعلت
ذلك عن غير رغبة في الانتقام لوجدت لنفسى السبيل الى
جميل العذر وقلت انى شرطى ، وللشرطى أن يشتبه ولا
تريب عليه اذا أخطأه التوفيق ، ولكننى فعلته متعمدا
ورميتك متقصدا ، وانى أشهد اننى كنت دائى القسوة نائى
الرحمة لا أعرف التجاوز عن الخطيئة ولا أعرض لتليب (١)
كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة ، فكيف
أرضى اليوم لنفسى ما كنت أباه بالأמים على غيرها . ونفسى
كما تعلم أكثر النفوس حرمة على ، وأولاهن منى بحسن
المناصحة .. أرايتك كيف يجمل بى أن أنصب بدنى فى
سبيل اصلاح الفير ، وأنام عن تقويم ما أراه لنفسى من
الاعوجاج ؟ انى اذن لمن الظالمين !

« على أنى لا أود أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل
السداد ، فأنتصر منك بك ، كما انتصرت بك تلك البفى من
ذلك الشاب . ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا
الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت

(١) اخذه بتليبيه : جره

رءوفا بالعباد ، واجمع الى تلك الرأفة صحبة العدل ، فان
في ذلك ردعا للنفوس ، وعزا للشرعية وخذني باقرارى
ولا تطمع مجرما في غير المقاب ، فلكم كنت أقول لنفسي وهى
تجد في طلب الظالمين : جدى أيتها النفس فوالذى انت بيده
لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لأكونن بك أول
الموقعين !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها : « سننظر
في أمرك » ثم مد يده للسلام . فتقهقر جافير وهو يقول :
« عزيز على أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة » ، ثم
ركع أمامه خاشعا واستقبل الباب . ولما بلغه انفتل اليه
ثانيا وقال : « سأقوم بشؤون وظيفتى حتى يأتى الخلف » .
ثم ولى وجهه وغادر مادلين فى مكانه يلقي بسمعه الى وقع
تلك الخطوات المطمئنة

لم تكن تلك الحوادث التى نسطرها للقارىء الكريم
بواضحة الأثر فى القرية التى وقعت فيها ، ولكن بعض
ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر فى
النفوس

فلو اننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب ، وفيه من الفراغ
ما نلام معه على عدم الاتيان بما يسده ، فها نحن أولاء نذكر
ما وصل الى علمنا من خبر ذلك الأثر ، وان كان فيه بعض
ما لا يحتمل الوقوع ، ولكننا نشبه هنا ارادة الوصول الى
الحقيقة :

ذهب مادلين الى فانتين يعودها ، فى عصر اليوم الذى وقع
له فى صباحه مع جافير ما وقع ، وكان من عادته أن يفشاها
فى حجرتها فوقف فى هذه المرة ، وسأل عنها قبل الدخول ممن
كانت تمرضها

وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى احدهما
(برييتى) والاخرى (سمبليس) وكانت الاولى من سكان

الأطراف بالريف ، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة في الزهد أو نزوع الى خدمة الدين ، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق ، فدخلت في بيت الله دخول الخادم في بيت المخدم ، واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ، ولم يدعها الوجود في الدير الى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها ، شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يألفون النعيم ، ومن قارن بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الاول وخشونة الثاني نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة ، فلو شاء الناسك أن يصبح راعيا وأراد الراعي أن يمسي ناسكا لوجد كلاهما الى قصده سبيلا ممهدا وما هو الا أن يدخل أحدهما في ثوب صاحبه

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب الى الحمرة واقدام في الأمور ، وصلاح في العمل ، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية الاليجة ، وكان بأخلاقها بعض الشدة فهي جافية الطبع تغلظ القول للمريض ، وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية ، وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرميه فمها من ذلك الدعاء



اما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض ، فهي بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة ، ولقد وفق (فانسان دي بول) الى وصف الراهبات في تلك الكلمة التي جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية ، قال :
 « التواضع قناعهن ، وخوف الله شعارهن ، والطاعة حرزهن ، قد اتخذن البيع للتمجد ، ودور المرض للتعبد ، وللمخاوف الطرق ، وللرياضة الحجرات »

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة في سياق الحديث عند ذكر
(سمبليس) ونزيد عليها فنقول :

يقف الناظر الى تلك العذراء موقف الذاهل اذا سألها عن
عمرها سائل ، فقد كتم وجهها سر ماضيها . ولم يشأ أن
ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على أثر لزوال الشباب ، ولا
عن خبر لقدم الهرم . وهي قليلة الاكتراث ، كثيرة الاناة ،
قد جمعت في طباعها بين اللين والجفاء ، فانها لتلين حتى
يكاد يعقدها العاقد ، وتشدد حتى يخافها المعاند . . . كثيرة
الصمت ، قليلة تزويق الكلام . تكره الفضول في الحديث ،
فلا تنطق الا بمقدار ، وتحب الصدق حبا بغض اليها الكذب
في الجد والمزاح



تلك هي صفات (سمبليس) وما كتبنا غير ما أملاه علينا
لسان فضلها ، وقد أشتهرت بذلك في عالم الدين ،
حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل في كتاب بعث به الى
رفيق له فقال :

انه ليجرى على لسان أكثرنا تقى ، وأبعدنا عن المظنة شيء
من الكذب ، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر
به الوجدان - ولا يدخل في باب الامكان أن تسقط من
(سمبليس) سقطة من هذا النوع ، فتكذب في شيء كأننا
ما كان ، فانها تعتقد أن الذي يمين في الصغيرة ، لا يلبث أن
يستطرد به جواد المين في الكبيرة ، وتزعم أن الكذب من
أسماء الشيطان ، فهو عندها أحد اثنين : أما ابليس ، وأما
الكذب

فلعل ذلك البياض الذي نراه بوجهها هو أثر ما أودعه
الله من النور في سريرتها ، سريرة لو تمثلت لكأيها القارئ ،
لرايت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار
تلك هي الراهبة التي كانت تمرض فانتين وتبالغ في

محاسنتها وهي التي أوصاها مادلين بالعناية بها ، وسألها عنها قبل الدخول في هذه المرة

ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس ، فقالت حين لمحتته وهي تغالب كبد الحمى ويغالبها : « أين كوزيت ؟ » . فقال وهو يبتسم : « انها قادمة على الأثر » ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة . وكانت لا تلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع في نفسه من كلام الطبيب الذي كان ينذره بقرب حينها



ولما قضى لبائته من النظر اليها انكفأ الى حجرته ، فتناول قلمه ، وخط به في ورقة بعض الأرقام ، ثم خرج وأخذ سمته الى دار رجل يكرى الخيل والعجلات فغشيه في منزله وطلب اليه أن يكريه جوادا أصيلا ، فقال الرجل : « وما تصنع به ؟ » قال : « أطوي عليه عشرين فرسخا » قال : « انها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودا في عجلة ؟ » . قال : « نعم » . قال : « وكم يكون ثواؤك بعد الوصول ؟ » . قال : « ربما تجشمت السفر في اليوم التالي » . قال : « لتطوى في الجيئة ما طويت في الذهاب ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ان عندي جوادا كهملك أيها السيد وهو الأبلق الصغير . وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه انسان ، فما زلت به حتى رضت جماحه وأسست قياده فهو اليوم يسابق الافكار الى المقاصد ، ولكنه يرغب عن السرج ، وينزع الى الجر فمن شاء ان ينتفع به فليرغب عن ظهره الى جره »

قال مادلين : « أترأه يحسن العدو ويطيل الشوط » قال : « انه لينهب المسافة التي تريد قطعها نهبا ويطويها

خبا ، ولا يجد لذلك تعباً . على شريطة أن تنفس عنه في
 أثناء ذلك بعض التنفيس ، وأن يكون معك من يشارفه
 عند اخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات ، وأن
 لا تحمل معك في العجلة شيئاً ثقيلاً ودع رفق القائد الذي
 يقوده وعنايتك بالاشراف عليه . وأما أجره في اليوم
 فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا . وذلك سواء في السفر والاقامة»
 قال مادلين : « قبلنا شرائطك ، فابعث به غدا عند تنفس
 الصباح » ثم ألقى إليه ثلاث قطع من الذهب . وقال :
 « هاك أجره ليومين » وخرج من عنده ، ولكنه ما لبث أن
 عقب إليه وسأله قائلاً : « كم تقدر ثمن العجلة والجواد اذا
 ساومك فيهما مساوم ؟ » قال : « اتنوى ابتياعهما ؟ » .
 قال : « بل أريد أن أقف على الثمن خشية الطوارق في
 الطريق » . قال : « أربع وعشرون قطعة من الذهب » .
 قال : « هاكها » ثم خرج ولم يعقب ، ولبث صاحب الجواد
 في مكانه يحز الودج أسفا على ما فاتته من طلب المضاعفة في
 الثمن ، وجعل يقول : « ليتني طلبت إليه أكثر من ذلك
 القدر ، فاني لأجد منه ربح الاضطرار ، ولكنها فرصة
 عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة »



ذهب مادلين الى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ،
 ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء في عنفوان . وكان له
 صراف يقطن في حجرة بأسفل مخدعه ، فلما انتصف الليل
 أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق رأسه قد قطعت
 عليه نومه ، فاستيقظ وجعل يتسمع فصرى إليه صوت
 وقع لأقدام تقبل ، وتدبر في الحجرة التي فوقه ، فتبينها
 فإذا هي أقدام سيدة ، وما وقع له قبل الليلة أن يسمع في
 حجرة مادلين حركة قبل الصباح ، فعجب لوقوع ذلك في

مثل هذه الساعة من الليل ، وقال لعلها لأرق نزل به ، وزاد في عجبه أن سمع صريرا بأدراج الدولاب ، فاستوى في سريره قاعدا وطرده من عينيه ما علق بهما من كسل النعاس ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذي يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر ، فإذا هي مرسلة من طاق الحجرة التي لسيده ، فأدمن اليها النظر ، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كأنما كان مصدر انبعاثها نارا تشب لا سراجا يضيء

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراءى فيها خيال ، فعلم أن زجاج النافذة التي باتت تنبعث منها كان مرفوعا ، ولما تحقق ذلك أهوى برأسه الى الوسادة ، وجعل يعالج النوم من جديد

فاستغرق هزيعا من الليل ، ثم تنبه فاذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون ، فأيقن في هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج

واليك أيها القارئ ما وقع منذ الليلة في حجرة مادلين . وما لنا لا نقول في حجرة (جان فالجان) . وما غاب عنك أننا لا نعنى بهذين العلمين الا مسمى واحدا

كلمة في سريرة الانسان

نظرنا قبل اليوم نظرة في مرآة تلك السريرة ثم صورنا للبصر ما لمحتة عين البصيرة . وها نحن أولاء ننظر فيها النظرة الثانية ، وان كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد

يقف أحدكم على شاطئ البحر المحيط ، فتكبره عينه ، وتعظمه نفسه فاذا انتقل بنظره الى السماء أصغرت عينه البحر وأكبرت نفسه السماء

وأنه ليتضاءل في عينه المشهدان ، ويصغر في نفسه الكونان اذا ما نظر بعين الوجدان في مرآة سريرة الانسان ، فانك لا تجد مشهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الافهام كذلك المشهد ، فهو اذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر واذا أدجى أعيت ظلمته الفكر ، وقل أن تستقر فيه عين البصيرة على شيء تلم بكنهه ، أو تخترق حجاب سره لامتداد أمدده وفرط غموضه

فلو أنك حاولت وصفا لأدنى سرائر البشر ، وعمدت في ذلك الى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لاعوزك الوصف وأعجزك الوصول . اللهم الا اذا نزعت الى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم الى أوان العدم ، وأذبت الجميع في بودقة الفكر ، ثم استللت منها سبيكة شعرية يتناول حسناتها وراء النفوس ، ويجلو رونقها صدى الخواطر

فالسريرة هي ميدان الشهوات ، ومهبط المخزيات ، بل
قارورة الغرور ، وتنور الأحلام ، وموطن المطامع ، ومسرح
الأباطيل ، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه
سيما التفكير والانشغال ، ثم نظرت في صورته وكنت ممن
يكشف لهم الغطاء عما يجول في قرارة النفس ، وخلصان
الفؤاد ، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربا قائمة
وخيالات مشتبكة ؟!

نعم انه ليتمثل لعينك في ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك
بين دفتي ذلك الحيزوم ما سطره (هومير) وذكره ميلتون ،
وتوهمه (دانتي) . ولقد طال بنا الوقوف أيها القارئ على
ذلك المشهد العظيم ، ونحن نتهيب طريقه ونكبر الدخول
فيه ، ولكننا سنشد منا ، ونقدم على فتحه ، وموعدا الجزء
الثاني ان شاء الله تعالى



الجزء الثاني



الفصل الثالث

عاصفة تحت جمجمة

أو

((فورة))

قدمنا بين يدي القارىء ما كان من أمر (جان فالجان ،
منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال (١)
هذا الرجل الى رجل آخر ، وكيف فعلت في نفسه كلمات
العابد أفاعيلها فاختطفته الى المعبود . وأخرجته من مسلاخ (٢)
الشره (٣) والضعفينة ، وأسكنته في اهاب من الفضيلة

بدأ بالمبالغة في الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية
الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين (٤) . ولعله أبقى
عليهما ذكرة لذلك الصنيع

وجعل ينسل في سر (٥) من الناس من قرية الى قرية حتى
مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان وألقى عصاه بقرية
(منتراي سيرمير) وأدر الله له أخلاف (٦) الرزق فأثرى ،
ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة

ولبت ما شاء الله يرى أن السعادة في بقعة الضمير .
فكان كلما بضع (٧) الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر
في نفسه بوفر تلك السعادة . ولقد تكفلت حسنات الشطر
الثاني من حياته بفنسل حوبات (٨) الشطر الاول

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسي معرب (٥) أى خفاء
(٦) الثدى للمرأة والأطباء للكلبة والاخلاف للناقة (٧) قطع (٨) الحوبة اللذب



وكان رأسه مضطربا لفكرتين لا ثلاثة لهما : أن يخفى اسمه وأن يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع الى الخالق . وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجا حتى حالتا الى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على ارادته ، فاستقرتا في قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجدانه ، فهما اللتان دعته الى الانزواء فلبى ، والى البر فمضى ، والى التقشف فأطاع

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الاولى الى امر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن ايثار ثانيتهما على اولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وان جرت الى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره في اختفاء امره

الم تر اليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) (وجافير) يلقي عليه نظرات تكاد تخرق شفاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وان طارت حوله في ذلك الشبهات

فقد قام بنفسه أن أول فرض عليه انما يجب القيام به لغير شخصه . على أنه لم يشهد مشهدا لهذا العراك كان اشد هولا وأعظم مراسا من ذلك الذي مر به حين دخل عليه (جافير) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذي درج في أثناء النسيان ، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجذ الذي لا يفارقه العثار ، وهجم عليه أمر لا قبل له به ، فمرت به تلك الهزات التي تؤذن بوفرة النفس ، فانحنى انحناء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندي يتهاى للاقتحام . وهم وهو ينصت لـ (جافير) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير الى ذلك السجن الذي أودعوه (جان ماتيوي) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة ولو كان ممن تركو (١) عنده العوارف لزكت عنده عارفة

(١) زكت العارفة أي أثمر الجميل



العابد ، ولغيرت منه تلك السنون التي طواها بين الزهد والتوبة ، ولغير (١) يمشي قدما بقدم مطمئنة وصدر مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة أمامه فهناك عند قرارها قد ألقيت مفاتيح الجنة التي كان ينشدها

نعم كان الأخلق به أن يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه. واليك ما كان يجول في نواحي نفسه

غمره عند الوهلة الأولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب (٢) بحلمه حتى اذا تاب اليه أضمر في نفسه وهو ينظر الى (جافير) أن يتلوم (٣) بعض التلوم في الحكم على مصيره

ولبت سراة (٤) يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفي باطنه من الجزع صلاء (٥) فلم يفكر في ذات غيبه (٦) ولا في الأخذ بالحيلة مما عسى أن ينزل به من العوادي . ولا بدع فقد تخونه الحزم وقرعه (جافير) بقارعة أطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته أنه أصبح تحت كل كل كارثة لا يدري متى تفلته



انكفاً الى حجرة (فانتين) يعودها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال الجلوس ، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمدده . على أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيا ولم يستشر عزمها ، فقد مرت به الفكر أبابيل (٧) وهو لفرط خياله لا يكاد يميز بين صورها

وما أدري أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول في نفسه ما ضرني ألا أريم (٨) مكاني فأرقب مواقع القضاء في

(١) مضى (٢) صاح (٣) يتأني (٤) طول (٥) الصلاء النار (٦) ذات الغيب المستقبل (٧) جماعات (٨) أبرح

الحادث وأنا وادع لا تسمو الى الخطوب ولا تلتفت الظنون ،
وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسست الشر
ركبت عليها النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه اصابة مقدرة .
ثم دخل مخدعه وهو مذهب به ، فخلا الى نفسه وانعم
التفكير وجعل يقلب وجوه الراى فتعاضمه الأمر وأخذت
عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة

ساورته المخاوف وفاعته (١) الأوهام ، فقام الى الباب
فاستوثق منه وإلى المزلاج فأثبتته حتى ظن أنه فى مأمن من
الطارق والطارىء ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبا للمزيد فى
الأمن وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن الى النور ثم قال فى
نفسه ألا أزال مرئيا (عن أى عين ياترى كان يريد أن يتوارى) ؟
يا ويله ! ان ذلك الذى كان يجد فى الفرار منه ويقيم فى
طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام ما زال معه فى حجرة
واحدة

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن أنه كان فى عزلة
وأمن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى .
فجمع اشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع (٢) الفؤاد
ثم عصب رأسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت
أمامه وأنشأ يحدث نفسه :

- أين أنا ؟ وما عسى أن يكون ما أنا فيه ؟ ترى هل كذبتنى
العين حين رأت (جافير) ؟ وهل خاننى السمع حين أفرغ
فيه اسم ذلك الرجل (جان متيو) ؟ أترأه يشبهنى الى حد
أن أخذوه بى ، فويل لى . لقد كنت بالأمس آمنا فى سربى ،
وإرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله
فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس

(١) فعلت فعل الافعى (٢) غير متفرق الفؤاد



الذى ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت
فى رأسه كالأمواج حتى انه ليدافعها عنه باليدين . وكان
يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له بردا على قلبه ،
ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض

وكاد يلتهب رأسه فقام الى النافذة ففتحها ونظر الى
السماء ، فاذا بها ضريبة النجم (١) ساقطة النواحي (٢) فعاد
وارتمى على مقعده

ومر به قطع من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت
برأسه صور مبهمة أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت اليها
تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألمت ببعض أطرافها فعاد
الى نفسه بعض الشيء ، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة
التي نزل اليها انما هى من صنع يده - حال حقيقة باللوم
لا يلابسها المرء (٣) ولا يستقر عليها العيوف

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه أنه على زهده
وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئا مذكورا ، اللهم الا ذلك
الثقب الذى ثقبه وواد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه
الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ اليها شعاع من الذكرى
فكان اذا خطر له أن سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم
ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف أنفاسه
فى ليله ، وأغرى به سهادا تقض (٤) عليه معه المضاجع ،
وتطارحه الوسوس . ولطالما كان يقول لنفسه ان هذا
اليوم اذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ،
حتى انه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها (٥)
بالتقوى وتعهدا بالاحسان

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل أرجاء نفسه .
فلو أن قائلا قال له : ان هذا اليوم لا بد آت وان تلك الكلمة
(جان فالجان) لا بد أن تثب من مكنها ، وتترا آى أمامك

(١) يحجبها السحاب
(٢) شديدة الظلمة
(٣) ذو المروءة
(٤) تمتلئ عليه قضا وقضيضا ، أى حصى
(٥) ربها بمعنى ربها

في هيكل نوراني يهتك سستار الظلمة الذي أسدلته على نفسك . فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضريك ان تسمع ذلك الاسم فانه سيرفع منك ، ولا يهولك ان ترى ذلك النور فانه سيزيد في الظلمة التي تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فانه سيكون أكتف لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فانه سيصبح أديم لبنائك ، فاكشف عن حياتك تبلغ منك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف (جان فالجان) وقفة تخرج منها أنبل نفسا ، وأنبه ذكرا وأجمل أمرا لو أن قائلا قال له ذلك ، لنأى عنه بجانبه ، ولظن أنه يعالج المستحيل . على أن الذي كان يظنه داخلا في باب الاستحالة قد دخل في باب الامكان ، وجرت به الأقدار فوق وقع أخذ حلمه يتكشف رويدا رويدا وأخذ هو يزداد علما بحقيقة أمره

خيل اليه أنه قد أفاق من خفقة - وما أدري من أى خفقة أفاق - وأنه قد رأى نفسه ينزل في جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف (١) هاوية ، وأنه قد حاول أن ينحرف عنها ، فأثبتته الخوف وقيده الوهم . وأنه قد رأى تحت راية ذلك الليل خلقا (٢) أراد أن يتبينه فتكرت له معارفه حتى أنكره ، فألقى في روعه أن الأقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته (جان فالجان) فأخذته به وساقته ظلما الى تلك الهاوية التي لم يكن لها بد من أحد رجلين : إما هو ، وإما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الأقدار تجري على أذلالها (٣)

ولما تجلى له نور الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول ان مكاني في السجن لا يزال بحمد الله خاليا يطالعني منذ ذهبت بورقة ذلك الغلام ، واني لأشعر كأن قوة باطنة تسوقني اليه فهو مدركي وان أمعنت في الهرب ، ولشد ما يرمضني (٤) ان يقيموا فيه بديلا مني ، وان هو الا عاثر قد رمى به نحس (١) أى حافة (٢) مخلوقا (٣) تجري في أعنتها (٤) يقيمني على الرضاء

طالعه في أيديهم ، فأخذوه بي فأصبحت بفضل ذلك آمنة
في سربي ، فأنا مقيم هناك في لباس (جان ماتيوي) وأنا مقيم
هنا في لباس (مادلين) ولكن أيسعني في مروعتي أن أترك
هذا البائس يدفن في السجن كما تدفن التوابيت دفنا
لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزي والعار ؟ أم كيف
يجمل بي أن أتدلى هنا في النعم ، وهو يتدلى هناك في النقم ؟!
وعلى أثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف
حركة لا تمر بنفس الحي في مدى حياته غير مرات معدودات
فقد اختلجت سريرته اختلاجا بعث ما كان كامنا في
فؤاده من الهواجس . وقع ذلك على أثر مزيج قد جمع
في نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هي إحدى
ضحكات السرائر

قام بعد ذلك الى المصباح فأضاءه من جديد وطرح عن
منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه
ما لي أراني على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه ؟ . وكنت
أفرق (١) من طريق واحد طالما قدرت أن تدهمني منه
الدواهي ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح (جافير) لا يجد
الى سبيلا وأصبحت في مأمن من شر ذلك الرجل الذي
ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على أثرى حتى
كاد يكشف عن أمرى - على أنها قد خانت هذه المرة فجرتة
على أثر غري ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عني ،
وليدعني أستروح روائح الأمن ، فقد طال عهدي بها .
وليقبض على (جان فالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى
شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولا ، فحسبي ما كابدت
من ألم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيا رآني الساعة لما
شك في أنى قريب عهد بالافاقة من سقم ، أو بالافلات من
برائن حادث



وإذا تأنقت الأقدار في مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها.
 وانى للمرء أن يدفع القدر عن غيره اذا هو أعجزه ان يدفعه
 عن نفسه ، وانى لا أرى مبررا لما كنت فيه من الجزع ، فان
 الأمل الذى كنت أتسمه طوال السنين ، والشئ الذى كان
 يملأ على أحلامي قد ظفرت به ، ذلك هو الأمن وهو بغيتى ،
 فمالى لا أشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح (١) لى
 وتقبل منى ، وأراد أن أجرى فى طريقى ، فقد أخذت نفسى
 بصحبة الفضيلة ، ورددتها الى التقى حتى قرت ، ورضتها
 على البر حتى سكنت ، فكيف انسى يوم دخلت على ذلك
 العابد فنفضت اليه جملة ما مر بى ، فأفرغ فى أذنى كلمات
 وعيتها حتى الموت ، فلأَمْضِينَ على هذا السنن فذلك مشيئة
 الله . صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجان سريره ،
 وبعد أن كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه
 وفكر



لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مخدعه وما شاع فى نفسه
 سرور ، ولا قر له قرار كما كاد يتوقع أن يكون . وما هى
 الا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه
 والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود
 الى شاطئه ، استطاع أن يرد الفكر عن العود الى مناطه .
 وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر . وعلة
 الفكر يعرفها المذنب وهى الندم . فسبحان من يثير النفس
 كما يثير البحر المحيط !
 نعم عاد الى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هو
 المناجى . وكان هو المصطفى . وكم حاول الا يكونهما .
 ولكن قوة باطنة ساقته سوفا ، وألحت عليه بوحيا : أن
 فكر فى ذلك الذى سيق الى الموت قبل اليوم بألفى سنة !

(١) أى غفر لى



وقبل أن نجرى بك شوطا بعيدا أيها القارىء ، يجمل بك أن تصبر قليلا على الاسهاب فى أمر لم نر بدا من بسطه : من المؤلف أن يناجى المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يطعم (١) تلك المناجاة - وانها لسر من أجمل الأسرار وأخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر الى السريرة ، ثم ترده السريرة الى الفكر . فاذا علمت هذا حلا لك أن تفهم الأسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا : « ثم قال - ثم صاح - قال لنفسه - كلم نفسه - صاح فى باطنه » . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة فى الباطن يتناول الكلام فيها كل ما فى الجسم من عضو وجانحة غير الفم

تلك حقيقة من حقائق النفس وان لم يقع عليها الحس أو يدركها اللمس

تساءل أين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذى اعتزمه ؟ فأقر فى نفسه أن كل ما أصر عليه انما هو باطل وأن الاستسلام للقدر فى هذا الموطن لمن احدى الكبر وكبر عليه أن يدع ذلك القدر فى وهمه ، وأولئك الناس فى ضلالتهم ، وهاله أن يجمد عن الحق وهم فى الباطل يتدفقون . ورسخ فى اعتقاده أن السكوت فى مثل هذه المواطن انما هو اشتراك فى الاثم ، وأن الاحجام عن المفاداة ، خليق أن ينزل به الى أحط منازل الآثام

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هذه المرارة ، فتزلزلت نيته التى نواها وجلس الى نفسه يحاسبها وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول : « ان لكل حى غاية يعمل على ادراك مداها . وقد كانت لى غاية أرى أنى قد بلغتها ، فلم أخفق مرة فى التنكر وخدعة الشرطة . ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة . أمن أجلها يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيرا لى أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فأنجو (١) يدق

بالروح لا بالجسد ، وأنزل منازل الأبرار . فلن أعق نفسي
بعقوقي ذلك العابد . فمالى أفتح باب الماضى على مصراعيه
وقد أمرنى العابد أن أوصده ؟ فسوأة لى . لقد أصبحت
لصا تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فانهم ربما سلبوا المرء
متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا
بحشاشته

« أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتزرت
حياته وسللت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس
وما كان القاتل بدونى فى قبح الصنيع ، على أنى لم أحسن
القتلة ، فهو اليوم فى سجنه ميت حى

« ذلك لعمرى أبشع ألوان الأجرام . فمالى لا أفتديه
بنفسى فأسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت (جان فالجان)
المجرم الأثيم

« فاذا طببت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد
وخرجت من هذا الجحيم خروجا لا يعقبه رجوع . فاذا
فررت منه الى السجن ، فانما أفر من جحيم الروح الى
جحيم الجسد ، وشستان ما بين العذابين ، ولئن لم أفعل
لأكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عنى ما قدمته بين يدي
آخرتى من عمل دنيائى ، اذا ما عدل بى طبعى الى الخور
فحال بينى وبين ما اعتزمتة

« وهذا العابد لا أفتأ أراه كأنه حى وكأنه منى أدنى (١)
ظلام ينهبنى بنظره نهبا . وكأنه يؤثر أن يرانى فى لباس
(جان فالجان) وان كان من نسج الأجرام على أن يرانى فى
لباس (مادلين) وان كان من نسج التقوى ، واذا جاز على
الناس تنكرى فلن يجوز عليه

« فما نظروا الا الى الوجه وما نظر الا الى الضمير ، فقد
استحال الا الذهاب الى (أراس) وانقاذ ذلك المكذوب عليه،

ولئن أقدمت على ذلك لأقدم على ما يحجم عنه الناس -
تلك هي المفاداة وإن عزت على النفس ، وذلك هو النصر وإن
كان اليما . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر ألا أكون تقيا
في نظر الله حتى أكون دنسا في نظر الناس !

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام الى كتبه
فنسقها والى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من
التجار ، فألقى بها في النار ثم كتب كتابا وغلفه

ولو أن أحدا كان معه في الحجرة لاستطاع أن يقرأ هذا
العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام بعد ذلك
الى خزانة أسرارته ، فأزعج منها درجا التقط منه محفظة

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج
به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان
يخفيه في قرارة نفسه ، ولرأيت أنه كان يحرك شفتيه
وتارة يرفع رأسه ويقف بنظرة على الحائط وقفة المستطلع
كمن يحاول كشف سر أو استجلاء غامض

ضم اليه الكتاب الذي كتبه ، والمحفظة التي التقطها وعاد
الى السير في مخدعه وفكره لم يبرح رأسه ولم ينحرف عن
مجراه . فكان كلما تنقل ببصره رأى أمامه لوح المقدور وفيه
سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فأمط عنك اللثام
وانتسب

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته
وقد سكنتا في هيكلي متباينين أخذا يدنوان منه تحت
الليل (وما نسي القاريء أن أولاهما لم تكن غير التنكر وأن
ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع الى الخالق) فجعل
يضاهي بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص الى الحكم بأن
الأولى إنما ركبت من الأثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهي أذن
من وحي الشيطان . وأن الثانية إنما صورت من الاحتساب
وحب الآجلة فهي أذن من وحي السماء . وراى هذه وهي

(١) حب الدات (٢) حب الدنيا

تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرزق التمييز
بين نزعة الشر ونزعة الخير

ثم اشتبكنا أمامه فى نزال فجعل يفكر فى أمرهما . وأنه
لكذلك اذ نظر اليهما بعين عقله ، فاذا بهما قد أخذتا تربوان
وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق . وفى هذه اللحظة
احس فى باطنه وفى ذلك الملكوت النفسى الذى لا يعرف
مداه نضالا قد قام بين ملك من الملائكة وشيطان من
الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يؤتى (١)
اليه أنه فى حراسة ذك الملك فشد (٢) منه أن رآه من
الظاهرين (٣) ومر كأن لم يكن ذلك الجازع ، وأيقن أن
السريرة والقدر أوفيا على ساعة الابرام فى أمره
فقال فى نفسه : لقد أوضح العابد سبيلى فى الطور الاول من
حياتى الجديدة . وها هو ذا (جان ماتيو) يوضحه لى فى
طورها الأخير

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هدأة فمرت برأسه
الف فكرة وكلها تصيح به أن امض فى عزميتك ولكنه لم ينبج
فى أثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : أرانى متعجلا
فى الأمر ، وما كان (جان ماتيو) ممن يعتد بهم ، أن هو
الا لص من السارقين

ثم عاد فقال لنفسه : « اذا كان هذا الرجل من السارقين
كما يزعمون ، فان عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن .
فما له كتب عليه أن يطوى فيه حياته ؟ فلو لا أنهم أخذوه بى
وحل به شؤم أسمى الذى لبسه كارها ، لما حشروه فى زمرة
المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثا من شجرة لغيره ، وما كان
نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا أن علم أن له سوائف غير
محمودة ، وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت »
ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهلون
هذه البطولة بالعفو عنه . دع تقديرهم لحسن سيرته

(١) بخيل اليه (٢) قواه (٣) الغالبين

وما خلف وراءه من الخيرات في هذا البلد. ولكن هذا الخاطر لم يلبث أن محتته ابتسامة مرة قد خطفت على شفثيه ، فقد قال لنفسه على الأثر :

— ان قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمل التأويل فهو سجن الأبد

ثم نفص عنه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الأرض واتجه الى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال : « سبيلى أن أقوم بالواجب فلست أتوقع شرا مما أنا فيه . فهبنى تركت الأقدار تجرى على اذلالها ، ولبثت في القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحداث التى أعلم دون غيرى أنها متبلة (١) بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم اذا ما علقت بها اللعنة ؟ على أننى اذا طببت نفسا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدا مغلولا فى لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى !

« وهذا أمر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لأنقض فى الأرض ما أبرم فى السماء . . فأنا اليوم بين أمرين : اما فضيلة تحتها عار ، واما عار تحتها فضيلة »

وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس ، فما نهنت من عزمه ولا كفت من غربه . ولكنها كدت ذهنه وأفطعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وانه لذلك اذ آذنت ساعة البيعة (الكنيسة) بانتصاف الليل ، وأجابتها ساعة باحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى بين جرس (٢) الجرسين فذكر على الأثر أنه رأى عند أحد باعة الفلزات (٣) جرسا عتيقا معروضا للبيع وعليه اسم

(١) متبلة — بتشديد الباء — أى مخلوطة بالجريمة — من تبل الطعام — بتشديد الباء — جعل فيه التابل الذى يطيبه (٢) الجرس صوت يجرس (٣) الخردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد



(أنطون ألبين)

ثم أحس البرد فزاد في نار المدفأة ، وغاب عنه أن يفلق
النافذة ، ثم وقع في ذهوله من جديد وحاول جهده أن يذكر
ما كان يجول في نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان ،
ولكنه لم ينشب أن يخرج منه الى الذكر فقال : « لقد ذكرت
انى عقدت النية على الذهاب واماطة اللثام » . وخطرت له
ذكرى (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس وميض
نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حوله وجوه المناظر .
وصاح : « ويل لى ! لقد أعمانى حب الأثرة فلم أفكر في غير
نفسى ، وأرانى قد قصرت همتى على أمرين اما التنكر وفيه
نجاة الجسد ، واما الظهور وفيه نجاة الروح . ولقد
خاصمت نفسى الى نفسى ، فكنت قاضيا قد جمع بين العزة
والهون ، وكنت مجرما قد ضم بين النبل والخسة . وهذا
لعمرك الله لون من ألوان الأثرة ولو ملت الى الايثار لبدأت
بغيرى

» فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى
الى السجن وخلوا سبيل (جان ماتيو) ، فماذا يحل بعدى
بهذا البلد الذى أغاثه الله بى ، فأقمت فيه المصانع ، وأيقظت
الصناعة وشيدت دورا للعاملين وأخرى للعاملات ، وكفلت
الايتام وحبست الأرزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة
الوقود من التنور واللحم من القدر . . فهم يستمدون منى
حياتهم ، وأنا محور تجاراتهم وموئل عفاتهم ومثابة (١)
أرزاقهم وبى أخصب عيشهم وأخضرت أعوادهم ، ولم يكونوا
من قبل شيئا مذكورا ! .

» دع تلك البائسة المضعوفة التى أصبحت هامة (٢) اليوم
أو غد بعد أن ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء طهرها ،
وأنا الذى أخرجها عن أفق العفة ، وكنت أذنا للسعاية بها

(١) محل (٢) يقال فلان أصبح هامة اليوم أى حضر أجله

فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل ، فأكلت بشديها
وكنت لها من الظالمين

« وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الأم على نجاتها
فما أصنع بعهدى معها اذا نزحت اليوم ، فماتت الأم
وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القدر
فتلقفها الغير . فلننظر ما ينجم من الضرر في حالتى اللبث
والذهاب ! »

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة أعقبته
رعدة مرت كأن لم تكن . فتمكن من نفسه وقال : « ليذهب
ذلك الرجل الى السجن فقد سرق . ومالى أحسن به الظن
فأدفع عنه الاثم ، فلا أمكن هنا وأثمر هذا المال ، فاذا
أحسننت عليه القيام ولد لى فى مدى عشر سنين ألفى ألف
أنفقها فى وجوه البر ، وليس بى أن أعمل لنفسى ، فلست
ممن يتربحون فى الجميل ، فاذا استبحر البلد وماج بأهله
ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة (١) قرية وأطلع العراء
ضيعة (٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ،
وتسعد الأسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل
ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ، وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها
» لقد كنت محمقا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى
فى ذلك الا الأثرة ، ولو أننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب
ذلك الخطل ، وانها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى

« أستحيى نفسا أثيمة ، وأميت انفسا زكية ، واتوقع
على هذا اجرا ؟ . بس (٣) على أن تموت (فانتين) وهى على
ظما الى رؤية طفلتها ، وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أما
» كل ذلك من أجل مجرم لا اراه الا خليقا بما حل به من
العقاب ، ولا أحسب الا أنه رب سوائف فى السوء ،

(١) عزبة (٢) الارض المزرعة او الافدنة (٣) حرام



فلا يضره أن يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجيناً كان
أو طليقاً

« ولو أن لتلك الطفلة كافلاً غيرى لما حزبنى الأمر . فإذا
أجرت باللبث ههنا ، فعلى أجرامى ، وإن هى إلا غمزات من
الندم أجد لها مسا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيها ففيه
نعيم لأناس ليس لهم دونى من ولى . وهأنذا وطنت النفس
على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . ذلك هو عين
الاحتساب . . ! »



ثم طفق يمشى فى مخدعه وقد تبسّطت فى هذه المرة نفسه
ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه
إنما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر
الماس لا يلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم
وليل - خيل اليه أنه هبط الى تلك الاغوار فسلك فى
أشدها حلوكة وأبعدها مدى ، ثم جعل يتحسس بيديه فى
تلك الدجبية (١) حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس أو بحقيقة
من تلك الحقائق ، وأنه ليقبض عليها إذ تفجر منها نور كاد
يعشى بصره ، فصاح : « ها أنذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى
يدى مفتاح طلسمها

« فأنا (مادلين) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرنى أن أكون
(جان فالجان) . ومالى أقول جان فالجان وأنا لا أعرف خلقاً
قد ركب عليه هذا الاسم ، فإن كان حياً كما يزعمون
فليتول أمر نفسه ولا أحسب هذا الاسم إلا طائر شؤم
له سباحات تحت الليل ، فإذا عن له رأس قد انتواه القدر
وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به »

ثم نظر في مرآة له صغيرة وقال : « لقد رفيت عنى هذه
العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها »
ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :

« لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الأمر ، واستحال
غير الاقدام ، على أنى لا أزال أرى آصرة من الولد تربطنى
بهذا الاسم فمن الكيس قطعها . وأشياء فى هذا المخدع
ربما وقفتهم على أثرى ومهدت السبيل للشك فى أمرى . .
وهن وان كن صوامت فانهن أفصح عند الشهادة لسانا من
الناطقين ، فمن خلل الراى أن أبقى عليهن »

ثم ضرب بيده الى جيبه فأخرج كيسا التقط منه مفتاحا
أولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلكم خدع مكانه عين
الناظر لكمونه بين خطوط دكنا رسمت متناسبة الأوضاع
على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت
تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب
المدفأة لتصرف عين الناظر . وكان فى ذلك المخبأ أهدام بالية
ومعطف أزرق وسراويل (١) رث وجراب عتيق وعصا غليظة
مقمة بالحديد . ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر
بمدينة (دنى) سنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربا من
ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبا فى ذكرى العابد

ثم رمى الباب بنظرة عجلى كأنه يخشى الفرة برغم
الوثوق من الأيصاد ، وأهوى كاللمح على ذلك المتاع دون
أن يسعده بنظرة منه فاحتضنه ، وألقى به فى النار ، ذلك
المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الإبقاء عليه

وما هى الا لمحة حتى أفسرق المكان بنور أحمر رقصت
أشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم أن النار قد أتت
على متاعه الا عصاه فقد بقى فيها ذماء (٢) دل عليه شرر
كانت لا تزال ترمى به الى وسط الحجرة

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات (٢) بقية



وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ،
 وظهر على أثره في الموقد شيء لماع لو دانيته لرأيت أنه لم
 يكن غير تلك القطعة الفضية - قطعة الفلام (سافويار)
 ووقع نظره على الشمعدانين وقد أضاءتهما النار فانعكس
 لهما على الموقد ما أدرى أى لون من ألوان الأشعة ، فصاح
 وهذا أيضا لا معناة (١) للابقاء عليهما ، ثم أحقهما بمتاعه فلم
 يلبث أن صهرا وحالا الى سبيكة منكرة - ثم خطا الى الموقد
 فأنحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال : « نعم الدفاء » !
 ولم يكذ يحمد مغبة أمره حتى شعر كأن صوتا في داخله
 يصيح به : « جان فالجان » ! . فقف (٢) شعر رأسه واستطير
 فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم أخذ يتسمع وإذا
 به يناديه : « هنيئا لك لقد أكملت صنعك ، أتلفت
 الشمعدانين - نجوت من ألم الذكرى - نسيت العابد -
 نسيت معه الماضي - سقت (جان ماتيو) الى الهلاك - هنيئا
 لك لقد نجوت - فكن شيخا وقورا ودع اسمك يحمل
 البلاء الى غيرك فيمضى فداء لك - كن عريض الجاه خصب
 الفناء - عل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من
 الأيتام . ولا تنس وأنت مستقر في الذروة من الجاه ومتدل
 في الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذى يلبس في السجن
 لباسك ويخطر في قيودك وأغلاك ، فليهنئك ما قدمت يداك »
 فتفصد جبينه عرقا ووقف ساهم الوجه سادر البصر
 قد شدت أهدا به الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت
 لا ينقطع عن مناداته : « جان فالجان ! انك لا تعدم أن ترى
 حولك قنابل (٣) من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء
 عليك ، فلا تنس وأنت في مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى
 الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض

(١) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه (٢) قف - بتشديد الفاء -
 شعر رأسه أى وقف (٣) جماعات



من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتجب في طريقها
دعواتهم وتقطع سبيل الخروج الى السماء فتمسى ومالك
غير اللعنة من خلاق (١) ولبئس عقبى الدار «

وأخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى أذنه
يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلى مسمعيه ،
وبعد أن كان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام
بنفسه أن الذى يكلمه لم يكن غير حى من الأحياء تحتويه
الحجرة فرمى بصره يطلبه فى أركانها ، وصاح وهو لا يعي :
« من المتكلم ؟ » . ثم ضحك ضحكة من به مس - وقال :
« لشد ما وهمت فليس هنا غيرى »

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى
كان فيها لم يكن ممن تقع عليه العيون - ثم عاود المشى
بخطى رتيبة (٢) تبعث الأسى وتشير السجن فكانت تقطع
عليه سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته
غزاره (٣) فيشب من فراشه مروعا مذعورا

على أن هذا المشى كان يروح عنه ويشمله فى آن ، وقد
تدفع الملمات صاحبها الى الحركة رجاء أن يصيب فى طريقه
من يشد منه برأى أو ينفس عنه بنصح

وأجازت به آنة نكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملا
جوانب صدره ، فتراجع مخذولا أمام كلتا العزيمتين اللتين
اعتزمهما ، وبدا له قبح ما أضمر فأيقن أن لا خير فى الأولى
ولا أجر فى الثانية . وقال : « ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى
(بجان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بى وانظرنى ههنا حتى
مكنت لنفسى فملكتم يومى وبلغت من الثروة ما بلغت » .
ثم التفتت نفسه التفاتة الى حاضره وأخرى الى ماضيه
وقال : « أكشف عن نفسى » . . قالها ونفسه تكاد تسيل

(١) أى نصيب (٢) الشيء الرتيب الذى يقع متشابها على وتيرة
واحدة (٣) الفرار النوم القليل



جزعا - «سلام على عيش ابسته مضطرا وخلعته كارها. فلقد
 آن للنفس أن تودع ما فيه ، فتستبدل (١) الاذلال بالاجلال
 والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل
 عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن أن
 تستبدل رنات السلاسل بتفريد البلابل عند اقبال الربيع
 في وشيه البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل في القيود
 بالتنقل بين المروج والنجود (٢) وللأنف أن يستبدل ريح
 صدا الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل
 خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة
 سجن الوحدة والتقلب في ألوان الشدة ، وفي ذمة الله أيتها
 الدار فما كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك . وأنت أيها
 الخادم العجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك .
 وقد آن لى وأنا العاثر المجدود أن أستدبر عيشا أخضر ،
 لأستقبل عيشا أغبر ، وألبس رداء أحمر ، نسجته يد البلاء
 الأكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفرا .
 أفى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين أرد الى السجن
 وأنا أعلم الناس بما فيه من عذاب وهوان ؟ الا انى او كنت
 فى عهد الشباب لا ضللت بخطبه . أما وقد أخذت منى
 الأيام فلا طوق على مصابرة الشدائد

» ينهرنى الحرس ، اخاطب (٣) بالكاف ، تأخذنى سياط
 السجانين ، دع عصا كبيرهم : أمسى عارى القدمين فى حذاء
 من الحديد . أمد ساقى لمطربة القين (٤) اكشاف فى الصباح
 والمساء ليبلو قيودها ويمتحن أغلالها ، أصبح هدفا لأعين

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا اراد ترك العمامة فالباء تدخل
 دائما على المتروك قال الله تعالى استبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير
 فى هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن
 المقابلة فى المعانى واطراد القول

(٢) جمع نجد أى المرتفع من الأرض

(٣) علامة الاحتقار (٤) الحداد

الزوار ، فكلما مر بي أحدهم قالوا : هذا هو جان فالجان
الشهير الذي كان شيخا (لمتراى سيرمير)

« فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح في
غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بعذابنا ، فندخل
اثنين اثنين بين أيد تعمل في أقفيتنا وسياط تقدح في ظهورنا
فما أمرها من حياة . انى أكاد أتهم القدر . أترأه تجرد من
الروحانية وانغمس في البشرية فحل في هيكل شرير حضرت
في استنباط الأذى قريحته وأقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! »

ثم رجع الى هواجسه الاولى ووقف عند تلك العقدة التي
أعياه حلها : أقيم هنا فيصبح شيطانا أحلته الجنة أم يذهب
الى هناك فيصبح ملكا أحله السعير ، فتأوه وقال : « ربى
كيف الخلاص ؟ »

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الألم وأخذ فكره
يختلط عليه ، فمر به ما أدرى أى صنوف البله ولعله أثر
من آثار مواقع اليأس في النفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة
(رومان فيل) ، فقال : « ترى متى سمعت هذه الكلمة ؟ .
سمعتها منذ عهد في أغنية صغيرة تقع في بيتين من الشعر
وانى لأحسب (رومان فيل) اسما لغاب صغير بضاحية من
ضواحي باريس يؤمه العشاق من الشباب في شهر أبريل ،
يجنون زهرات الزنبق »

وسرى اضطراب باطنه الى ظاهره فجعل يترنح في مشيته
كأنه وليد قد خرج من الحبس الى المشى ، فترك يمشى
وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح أشد الكفاح ليثوب
اليه رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى اذا تمكن من نفسه
أو كاذ ، أراد أن يعزم العزيمة الأخيرة . اما الكشف عن
نفسه واما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز
وطاحت هواجسه بثمرات فكره وأخذت تصوراته المبهمة
تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعاقب الى دخان تذهب به

الرياح ، فأحس أنه أنى وقف أو وقفته الضرورة فان بضعة
منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، أما احتضار سعادته ،
وأما احتضار فضيلته ، وعأوده التردد فعاد الى موقفه
الاول



هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من
الكرب والبلاء

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائة من السنين ،
هناك عند تلك الزيتونة المباركة التي كانت تعبت بها هوج (١)
رياح الأبد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك
السر الغامض الذى أعجز العقول ادراك كنهه ، ذلك الذى
حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا
الورى ، يعاف هو أيضا شرب الكأس المرهوبة التى طالما
نحاهما عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ،
تسلسلت منها ظلال تجزع عند ورودها النفوس



(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة

الفصل الرابع

ألوان الألم في النوم

اقبل السحر وهو لا يزال يمشى في حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسه فارتدى على مقعد . وما هو الا أن احتواه حتى غط في النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى التي تمثل للمهموم في نومه ما كان عليه في يقظته ، مغالية في تلوين وجوه الألم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكديف حتى خط بيده ما كان مركزا في نفسه من وحى ذلك الكابوس

وايس من الأمانة أن نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتى - ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفا

الرؤيا

رأيت كأننى في قفر لا نبت فيه ، وكأتنى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن أخى كان يماشينى في ذلك القفر ، ذلك الأخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا في حديث جر الى ذكر جارة كانت لنا في ذلك العهد - كانت تعمل امام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث في ذلك القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من

تلك النافذة . . وهفا بنا فارس في لون الرماد على فرس في
لون التراب عارى الجسد أصلع الرأس جميعه ، حتى ان
النظر الى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده
محصرة في لدونة فرع الكرم ، وفي ثقل عود الحديد - هفا بنا
ولم يسلم . . !

فقال لى أخى : « اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف .
وكان طريقا سماؤه في لون أرضه لا يرى السالك فيه أجمة
ولا خضراء ، وانى لأحدثه وأنا لاه عنه بما أنا فيه ، اذا به
قد راغ روعة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها
فخرست (١) عليها أنها قرية (رومانفيل) فركبت اول
طريق لقينى فاذا به قفر ، عدات عنه الى ثان فلما بلغت
الزاوية التى تربطه بأخيه اذا أنا برجل قائم عند حائط ،
فسألته عن اسم القرية التى احلتنى فلم ينعم بالجواب .
وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فاذا أنا برجل
قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ،
وكان للدار بستان دلفت اليه فاذا أنا برجل قائم تحت
شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت
على وجهى فى تلك القرية التى أقفرت من الانس سبلها
وفتحت أبواب دورها فما رمانى الطريق بانسى ولا احسست
حركة فى دار من تلك الدور - غير انى كنت ارى عند كل
جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلا قائما قد
اخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت الى المزارع ، فلم اكذ انقل
فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ،
واذا بكل اولئك الذين رأيتهم قياما قد ترسموا أثرى ،
ورأيت كأنهم يمشون الهوينى ، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسع
منى خطى واخف حركة ، وما هى الا لمحة حتى لحقوا بى
وتكنفونى وكانوا جميعا فى لون التراب ، فسألنى أحدهم

(١) أى تظنيت ، خمنت ، حذرت



واحسبه اول رجل لقيته عند هبوطى القرية : « أين تمضى
ويلك - أولست قد مت من عهد بعيد ؟ » . وبينما أتينا
للجواب اذا بهم قد اختفوا جميعا



ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت نار
المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال ليلا
فقام الى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فاذا بها لا تزال
ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق
وبينا هو ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتا جافيا
وضجة عنيفة على وجه الارض . فخفض بصره فرأى
نجمين أحمرين يشعان أشعة تتراعى فى جوف ذلك الليل ،
وكان لا يزال فى بقايا خياله - فقال : « دفعت الليلة الى
عجائب ، ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح
تحتنا ؟ » . ثم قامت ضجة ثانية كان من أثرها فى نفسه أن عاد
الى صوابه فنظر نظرة أخرى ، فاذا بالنجمين الأحمرين لم
يكونا غير مصباحى عجلة قد شد إليها جواد أبيض ، فسأل
نفسه : « لأمر ما بكرت هذه العجلة ! »

وفوجئ بطرق على الباب - فأزعجته هذه المفجأة وصاح
بصوت خشن : « من الطارق ؟ » فكان الجواب : « تلك أنا
يا سيدى الشيخ » فعرف صوت خادمه العجوز ، فقال :
« وما تريدن ؟ » . فقالت : « إنها الساعة الخامسة
يا سيدى » . قال : « وما شأنى بذلك ؟ » . قالت : « لقد
حضرت العجلة » . قال : « أية عجلة ؟ » . قالت : « تلك
التي تقدم سيدى بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا
السائق يطلب لقاءك » . قال : « ويحك أى سائق ؟ » .
قالت : « سائق السيد مكوفير » ، وما كادت تذكر هذا

الاسم حتى احتسوته رعدة ، وكان برقاً من الذكرى قد
خطف أمام عينيه . ثم سكت سكوتاً طويلاً . ولو رآته الخادم
وهو على تلك الحال لتمشى قلبها في صدرها من هول ما ترى .
وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التي
نسجتها الشمعة من دموعها . وخاطرت الخادم بتذكرة فقالت :
« سيدى الشيخ ، كيف أجيب السائق ؟ » . فقال لها :
« قولى له انى سأوافيه الساعة »



وكان البريد بين أراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك
العهد على عجالات ذات ترسين مطوقين بجلد أسمر وفى كل
عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر . ولم تكن
تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شىء من الرواء .
وقد كان أيسر عيب بها أنها حدياء . فاذا لاحت للناظر عند
مطرح البصر وهى تزحف تحت الأفق زحفاً ، حسب أنها
من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت أعجازها .
وكان البريد الذى يغادر أراس فى كل ليلة لا يبرحها حتى
يوافقها بريد منتراى سيرمير .

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط الى منتراى
سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق
عجلة صغيرة قد شد إليها جواد أبيض وفيها أنسان مدثر ،
فرجتها الصدمة رجة أشفق معها حامل البريد على ذلك
الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه
وهو يركض جواده ملء فروجه (١) فقال حامل البريد :
« ويل له ، لقد استطرد به الشيطان » . ولم يكن الذى
مر يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة .

(١) أى ملء ما بين أقدامه ، والمعنى أنه أسرع بجواده



فلو أنك سألته الى أين تمضى ؟ وما لك هكذا تسرع ؟ لأجاب :
لا أدري

انه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فاما الى (أراس) واما
الى غيرها . ومرت تهوى به العجلة في جوف الليل وكأنها
مدفوعة الى هاوية ، وكان يشعر أنه قد بات نهبا لقوتين
متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم
الا الله وحده ما كان يجول في مناحي نفسه . ومن ذا الذي
سلم من أن يضل واو مرة واحدة في ظلمات مغاور الغيب ؟
فسار وما عزم عزمه ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت
سريرته لأمر أبرمه . فكان في أخرى هواجسه مثله في
اولاها ، ما زال واقفا حيث كان . ثم عاوده ما كان يتمشى
في نفسه حين ركب العجلة ، فقال : « مهما كانت العاقبة
فمن العجز ألا آخذ بالحيلة . وليس للمرء أن يقطع بوقوع
أمر من الأمور ، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره
فيستبطنه بحثا واستقراء . ومن نصب نفسه للحكم على
الأشياء وهو غير مكثب (١) فقد أخطأ مواقع الرأي واطلع
من الذر جبالا ، ولعلی اذا لقيت (جان ماتيوي) وجدت
الأمر أيسر مما في نفسي ، ورأيت أهلا لما نزل به . أما (جافير)
فما كان ليكبد (٢) لي وقد صرف الله عني عنانه وصبه على
(جان ماتيوي) فصبوب اليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله
من عنادها ، فانها ما نزلت بصدر الا تعصى على صاحبه
انتزاعها . فلا خوف اذن من ذلك الداهية ، ولا اكذب
نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحا
ومصري لا يزال بحمد الله في قبضة يدي أصرفه كيف
أشاء

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر في قرارة نفسه أن
يعود على أن يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب

(١) أي قريب (٢) أي يصعب على



سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر (١) احضارا يطوى
فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما أندفع
فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع

ولما تنفس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت
مدينة مونترأى سيرمير فنظر الى أفق قد ابيضت ذؤابته ،
وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء ،
اصباحها أشبه الأشياء بامسائها . لا تكاد ترى تباشيره ،
ولكن أخيلة (٢) التلال والأشجار قد أضافت الى ما كان فى
نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى ، وكان
كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم (٣) الطريق قال
فى نفسه : ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه

وكان نخب الجواد وجرس جلجله ووقع انعجلة على البلاط ،
ايقاع حسن ونغم متماثل يدخل الأنس على نفس الخلى
ويزيد فى أسى نفس الشجى

فبلغ قرية (هيدسان) وقد أضحى ، فوقف أمام نزل
رجاء أن ينفس عن الجواد ويعلفه . وكان جوادا كما قال
عنه صاحبه من أصل بولونى عظيم السليل (٤) سحيرا (٥)
ادك (٦) أهنع (٧) مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب
الحافر . فهو وان لم يكن أصيلا كان عصبيا (٨) متينا .
فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى
ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت أعطافه بحميم

وكان لا يزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام النزل
يحمل اليه العلف ، وحانت منه التفاتة الى العجلة اليسرى ،
فصاح بالرجل : « أوانت على سفر بعيد ؟ » . قال : « مالك
ولهذا ؟ » . قال : « هل قطعت شقة طويلة ؟ » . قال :
« خمسة فراسخ » . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر الى

(١) أى يجرى جريا سريعا (٢) جمع خيال (٣) جوانب (٤) أى كبير
الراس (٥) كبير البطن (٦) عريض الكفل (٧) قصر العنق (٨) أى قوى
الأعصاب



العجلة : « لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال أن تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر الى ما حل بها من العطب » فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام . فقال الغلام وهو يحاوره : « أولى (١) لك ، فما كان أخلقها أن تطرحك وجوادك في حفرة من حفر الطريق » . ثم أشار الى مكان العطب : فاذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها في منترأى سيرمير ، فقصف اصبعين من أصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى (٢) فقال الرجل : « ابغنى نجارا له خصيصاء بهذا العمل » . فقال : « انه على خطوتين منا » . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت أسارير وجهه كأنه مطب ينظر الى ساق مهشمة . فقال الرجل : « أتعالج اصلاحها في الحال ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ومتى أسافر ؟ » . قال : « غدا » . فأجاب الرجل : « غدا ؟ » وقد ملكه الدهش . فقال النجار : « ان اصلاحها يستوفي عمر النهار كله . فهل أنت من أمرك على عجل ؟ » . قال : « ما أحوجنى الساعة الى السفر » . قال : « وددت لو تهيأ لك ذلك » . قال : « اصلحها ولك حكمك (٣) » . قال : « ليتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك » . قال : « انى مسوق الى السفر فاذا أعياك اصلاحها فابغنى غيرها » . ثم قال : « أهنا مركبة للكرأ ؟ » قال : « عندى مركبة يقبضنى عن اكرائها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لى أنك غير حريص على مال غيرك » . قال : « بعنيها » . قال : « أما البيع فلا » . قال : « انى ندى الكف وان اشتط البائع » . قال : « تحت يدي عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها في السادس (٤) والثلاثين من

(١) نجوت وما كدت تنجو، هكذا شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من أمضغ العرب للشيخ والقيصوم (٢) المحوى بتشديد الواو المسمار القلاووظ (٣) أى ما تشاء من الأجر (٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد انه لا يستخدمها مطلقا

كل شهر ، فان شئت اكريتها على شريطة ألا يراك ربها
وانت منطلق بها ، ولكنها عجلة عاتية لا يستظل بها
جواد واحد ، ومن لك الساعة برأسين من الجياد ؟ » .
قال : « من مرابط خيل البريد » . قال الرجل .
« وما وجهك ؟ » (١) . قال : « مدينة أراس » . قال : « أوحتم
من الحتم أن تبلغها اليوم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ألا
يستوى عندك أن تبلغها في فجر هذه الليلة ؟ » . قال :
« لا » . قال : « هل تحمل جوازا للسفر ؟ » . قال :
« نعم » . قال : « انك اذا تهيأ لك أن تحصل على جوادين
من مربوط خيل البريد فما أنت ببالحق أراس قبل الغد ، فان
خيول البريد في هذه المراحل منشورة في المزارع ، ونحن في
ابان الحرث وهم يجمعون له الخيل أنى أصابوها . فاذا لجأ
سیدی الى ذلك كان عليه أن يلبث نصف يوم عند كل
مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات » . قال : « أسرح
جوادي هذا من عجلتي وأمتطيه قابغنى سرجا » . قال :
« وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ » . قال : « لقد
ذكرت منى ناسيا . انه لا يصبر على صحبته » . قال :
« هل من سبيل الى جواد نبيل يبلغ بى أراس من غير
تنفيس (٢) » . وقال : « انك لن تظفر به ، وهبك وجدته فان
ربه ليضن به ولو ملأت يديه ذهباً » . فشاع السرور في
نفسه وقال : « ان للعناية ليذا فيما أرى ، أوليست هى التى
أتلقت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد أندرتنى فلم يلونى
انذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما أنا فيه ، فما ثناني
برد ولا قعد بى نصب ، ولا أرهقتنى نفقة ، فأصبحت وقد
عدانى اللوم ، فاذا استحال على المضى فى طريقى فتلك
مشيئة القدر » . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ،

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل (٢) أى فى مشوار واحد كما
تقول العامة

وخيل اليه ان السهم الذي ضل نصله في فؤاده قد انتزعه
منه نازع ، فوجد لذلك روحا لم يجده منذ رأى وجه جافير
وقال : « لقد علم الله انى صنعت ما يكاد يخرج عن
الطوق فأخطأني التوفيق ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله
الا الرجوع على هاتين النعلين »

ولو كان حديثه مع النجار في خلوة لما وصل الى اذن حتى
ولبث مكتوما ، ولكنه كان على الطريق المعبود . ومن شأن
مثله ان يلفت المار الذي يستهويه حب الاستطلاع فيقف
ناشرا اذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر في حديثه
حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم الا من هو فارغ
لذلك . وكذلك وقع (لجان فالجان) فبينما هو يحاور النجار
واذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام
لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى
اختفى وما كاد يهم (جان فالجان) بالرجوع حتى عاد الفلام
يصطحب امرأة عجوزا

قالت العجوز : « ان غلامى هذا قد نقل الى أنك في حاجة
الى مركبة » . وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق
جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك أن
تقبض عليه من جديد . فلبث غير بعيد ثم أجاب : « نعم
أيتها المرأة الصالحة ، فأنا في حاجة الى مركبة أكثرها ،
والكنهم يزعمون انى أحاول المحال » . قالت : « أقدم وجدتهما » .
قال : « أين ؟ » . قالت : « عندى » . فاحتوته قشعريرة
وقال فى نفسه : « كان الذى خفت أن يكون »

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل واكلها
الصدأ وفعل فيها الجو فعله . ولم تكن بأحسن حالا من
مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأب على ما فيها أن تقله الى
أراس ، فلم يجد عنها مزحلا ، فاكثرها على حكم ربها وشد
اليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينما كانت العجلة تجرى

به كان يجرى في نفسه حديث غريب : « لقد أحسست منذ
 هنيئة سرورا بعثته تلك الحوائل التي قامت بيني وبين المضي
 في طريقى وأرى الساعة أنه سرور كاذب . أويل لى . أيسرنى
 الاحجام عن مقصد أنا الذى وجه اليه نفسه مختاراً والقعود
 عن سفر أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقاً بإرادته ؟ »
 ولم يكد يمضى في طريقه حتى سمع صوتاً يهيب به أن
 قف ، فأوقف العربية ارتجالاً وقد عرته هزة المحموم المختلج
 ولعلها احدى هزات الأمل . وإذا بغلام العجوز يناديه :
 « أنا الذى هياً لك الحصول على العجلة » . قال : « وما
 تريد ؟ » . قال : « أجرى على ذلك » . قال وقد فارقه تلك
 الأريحية التى طالما تهزه الى اسداء الجميل : « اعزب ولا كرامة »
 ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، وأراد أن يعوض ما أضاعه
 من الزمن في هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى
 عناء من الجر وكان قد خرج به غب (١) سماء فكابد من الوحل
 وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة
 فراسخ في مدى ساعات أربع حتى بلغ سانت بول . وهناك
 نفس عنه في نزلها وقاده الى الاصطبل ووقف يعلفه . وأقبلت
 ربة النزل فقالت : « ألا يأكل سيدى ؟ » فقال :
 « ما أحوجنى الى الطعام » . وكانت امرأة صبوحة الوجه
 فارهة الجسم ، وأقبلت خادماً ، فهيأت له الخوان وهو
 يسارقها النظر وقد وجد لها في نفسه محلاً فأهوى الى الخبز ،
 فمضع منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى
 بجواره سائق عجلة يأكل . فقال له : « ما لهذا الخبز مرا ؟ »
 وكان المانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفاً بعد ذلك الى
 الاصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق
 به الى مدينة (تنك) وكانت على خمسة فراسخ من أراس .
 فسار وقد غرق في هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر



وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التي كانت تلوح له كأنها قد وقعت في غشية أو سبات

وان لوجوه الأرض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها وما زال كاسف البال وفاته قولهم : من سافر فقد تجدد ، وما يدريك لعله كان يقارن في نفسه بين قلب الأجواء وذلك الوجود البشري الذي لا يستقر فيه شيء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . ألم تر إلى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، وإلى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطة يديه ليمسكه فيقلته ، وكل حادث ينتابنا هو لية في طريقنا لا تلبث أن تسلمنا إلى الكبر ، وكلما أحسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذي يستطرد بنا زمانا ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتي من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه

وطلع الشفق على مدينة تنك في آن ، وكان النهار قصيرا فانطلق حتى اذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر الى جواده : « أرى جوادا مكدودا » ثم نظر الى الرجل وقال : « لعلك تريد أراس ؟ » . قال : « نعم » ، قال : « انك لن تبلغها على هذا الجواد » . قال : « كم بيني وبينها ؟ » . قال : « سبعة فراسخ » . قال : « ان دليل البريد لا يقول بقولك » . قال : « انهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضي فيه ، وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك ، فاذا بلغت كامبلان تتيامن واركب المحجة (١) الى أراس » . قال : « أخشى الضلال هذا الليل البهيم » . قال : « أولست من

(١) الطريق

اهل هذا البلد ؟ » . قال : « انى غريب » . قال : « عد الى تنك واقض الليلة في نزلها واستبدل بهذا الجواد الذى نزع التعب قواه جوادا يقلك الى اراس » . قال : « استحال غير السفر في هذه الليلة » . قال : « استأجر جوادا ودليلا » . فعمل بمناصحته وقفل الى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزال

وغاب في أحشاء ليل قد كسر على الارض جناحيه . وكان الطريق ، وعرا والعجلة تجلجل (١) فوق نكت الارض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : « ايه ايه ولك ضعف الأجر » . فصاح الغلام : « لقد عطب العريش ، فكيف نمضي ونحن بين طريق وعر وليل خليق أن تصد محارمه (٢) عن السرى ، فهل لك أن تعود الى تنك وأنا الضممين أن تبلغ اراس عند منبلج الصباح » . فقال : « أمعك جبل وسكين » . قال : « نعم » . فأهوى الى شجرة فاقتضب منها فرعا أقامه مقام العريش وانطلق في سبيله

وكان الوادى في ظلام دامس والضباب (دان مسف (٣) فوق الارض هيدبه) ينبعث من التلال كأنه كسف من الدخان وقد شاع في سواد السحب بياض ، وهبت ريح البحر في جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبه الأصوات بصوت الأثاث عبث به عابث

فتمخخ (٤) البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التى قضاهما منذ سنين ثمان في ضواحي مدينة (دينى) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى الى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغلام : « ما هذه

(١) أى تتحرك مضغضة (٢) أى مخاوفه (٣) مأخوذة من قول الشاعر :
يصف سحابا قريبا من الأرض : دان مسف فوق الارض هيد به * يكاد
بدفعه من قام بالراح (٤) تمخخ أخرج منها

الساعة ؟ » . فقال : « انها الساعة السابعة وسنبليج اراس
في الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة »

ونزلت برأسه فكرة لم يسبق لها في النزول ، فقال :
« ويل لي ما أضيع ما جشمت نفسي في يومى هذا من التعب
أما كان الأخلق بى أن أعلم علم تلك القضية وموعد النظر
فيها » ثم قدر في نفسه تقديرا لذلك الموعد وقال : « ان
الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر في هذه القضية
لا يفتقر الى الكثير من الزمن ، ان هو الا سؤال وجواب
فشهادة أو شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى
التغريم ، ولعلى أبلغ الجلسة قبل الفوات »

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة
مونت سان ألواى وقد سطعت غياهب الظلام



ولنعد بالقارىء الى « فانتين » :

في الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين
رضية البال ، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها
من الحمى ومزعجات الأحلام ما يهد الحيل (١)

ولما أصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب
فوجدتها في فورة من النفس فطلبت اليه أن ينذرها عند
قدوم مادلين

ولبثت في تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاهها .
وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقذرة ، وتحرك شفيتها
كأنها تذرع (٢) بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت
عينها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه أو كاد . وكانت تفتح

(١) الحيل والحوال ، بفتح الحاء فيهما : القوة (٢) تقيس بالذراع

بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب
فاذا دنت ساعة الشدة فان مددا من السماء يملأ نفوس
اولئك الذين فقدوا مدد الارض

وكانت كلما سألتها الراهبة : كيف أنت ؟ قالت : « أحمد
الله ولا اطلب الا رؤية مادلين » !

منذ بضعة أشهر وفي ذلك الحين الذي ابتذلت فيه
فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى
فانتين وكأنها ظل لفانتين . أما اليوم وقد فنى جسمها فقد كنت
ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين (والظل تلجسم والطيف
للروح) ولقد كان لتشويه خلقها أثر في خلقها فانظر الى تلك
المرئية التي لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعا ، كيف
هبط أكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب
لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظام نحرها ، وانبرت
أعضاؤها ، وأصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت
شعرها الأشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ،
فأف من المرض فانه يرتجل الشيخوخة وانه لأنجب مطايا
الكبر

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولما علم
بغيابه حرك رأسه حركة أعربت عن الأسف

وكان مادلين يأتي في عصر كل يوم وما تخلف مرة عن
ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل
طيبا

وعاودتها عند العصر فورة النفس فسألت عن ساعة
زمانها عشر مرات في مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة
في سريرها ، تلك التي كانت لاتنبعث لها جراحة من المرض
والهزال . ثم شبكت ذراعين قد انحلهما السقم ، وأرسلت
من صدرها تنهدا خيل معه الى الراهبة انها رفعت به عن
صدرها ثقلا ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم انسان .

ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهي تنظر اليه ؛
وكأنها معلقة الأنفاس والراغبة لا تجرؤ على سؤالها . ثم
ألقت برأسها على الوسادة ومرت الساعة تلو الساعة ولم
يزرها زائر

وما رآها على تلك الحال راء الا وعلم بما يجول في فكرها
ولكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم نتوَّجّع
وسمعتها الراهبة قبيل الغروب وهي تقول بصوت
خافت : « اننى هامة اليوم أو الغد ، فما كان أخلقه اليوم
بزورة الوداع » . ثم طفقت تغنى - وكأن صوتها نفحة من
نفحات النسيم - أغنية عتيقة تدعى بأغنية الأرجوحة ؛
كانت تنغم بها فانتين لانعاس طفلتها في عهدتها الاول ، وقد
كان صوتها يقطر حزنا ، وايقاعها مشجيا لا يملك السامع
معه الدموع من أن تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبة التي
درجت على الزهد والتقشف

ولما أعتمت علت وجهها آيات الدهول وأرسلت الراهبة
صبية تسأل عن مادلين فعادت على الأثر وأسرت لها أن
مادلين قد سافر وحيدا في فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق
بالوجه الذى يريد

وقد رآه قوم على طريق أراس وزعم قوم أنه قد ركب
طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم
على باطنه . وبينما هما يتساران على مقربة من سريرها
وقد استدبرتاها وإذا بفانتين وكأن نافضا من الحمى تمازجه
حركة المعافى في بدنه قد حركها في سريرها . فهبت رغم ذلك
الهزال المروع هزال الموت وجشت على ركبتيها واعتمدت
على الوسادة بمرفقيها وأرهفت للسمع أذنيها وفرجت
برأسها ما بين سجفى كلتها (١) وصاحت بهما : « انكما
تخوضان في حديث وان لمادلين فيه شأننا » . ونادتهما

(١) الناموسية



بصوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من أثره في نفسيهما أن
ظنتا أن المتكلم رجل من الرجال ، فالتفتا مذعورتين فقالت
لهما : « مالكما لا تنطقان ؟ » . فقالت الصبية بصوت
خافت : « ان البوابة تقول انه لا يعود الليلة » . وقالت
الراهبة على أثرها : « اهدئي أنت ونامي » . فأجابتهما
بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الأسى : « انه لا يعود ،
أراكما تتساران في شيء تحاولان كتماناه عنى ، ولا بد لى من
الوقوف عليه » ، فألقت الصبية في أذنى الراهبة كلمات
فاحمر وجه الراهبة وهالها أن تكذب ، ثم ترددت بعض
الشيء ، وقالت في نفسها ان أنا صدقتها في مثل هذا
الموطن فقد قتلتها ، وان أنا كذبتها فقد قتلت كرامتى .
ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه :
« ان مادلين قد سافر اليوم »

فاستوت المريضة في سريرها وسرت بنفسها عقبة من
السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت : « انه
سافر ليرى كوزيت » ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء
بوجهها وأخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت
للراهبة : « الآن حلا لى النوم امضاء لأمرى فلا تنزلى أمرى
على الجراءة عليك اذا رفعت صوتى في الحديث ، فما فاتنى
أن ذلك كان خروجاً عن أفق الأدب وانما استخفنى السرور !
ثم اخذت مضجعها بعد أن لثمت صليبها ، وقالت لها
الراهبة : « اهدئي ونامي » فضمت يديها الناديتين على
يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم
المريضة

وانشأت فانتين تقول : « سافر الى باريس وما كان أغناه
عن ذلك ومونت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى
مفاجأتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالأمس حين جر
الحديث الى ذكر كوزيت اننى سأراها قريباً وأخذ



توقيعى على كتاب الى أصحاب النزل ولا أحسبهم الا
فاعلين وما كانوا ليحبستوا عنى كوزيت وقد وفوا أجورهم
فحبسها عنى افتيات على أولى الأمر ، فلا تومئى الى
بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلها وسعادة
لا حد لها . أو لست خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه
طفلتى ولا أحسبها وقد بلغت السابعة الا صببة حسناء
ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو أن
لى عمر الأبد لهان ذلك البعاد

« فما أطيب عنصر ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك
البرد القارس لانقاذ طفلتى ، ولعله يعود فى الغد من مونت
فورمى ، وهى بلدة قد قطعت طريقها على قدمى منذ عهد
طويل فكان بعيد الشقة على وان كان يسيرا على العجلان ،
فيا ترى كم بيننا وبينها ؟

فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة : « انه سيعود
بإذن الله فى الغد » . فقالت : « سأرى بنيتى فى الغد . ان
الأمل بلقائها قد البسنى ثوب العافية ، فلست مريضة كما
تزعمون ، ولكنى مفتونة ، فلو أنى دعيت الساعة الى الرقص
لأبدعت فيه »

وكانت فى هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات
وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات
وما أشبه سرور الأمهات بسرور الأطفال .

ثم أقلت برأسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى
أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتياح ، فأطبقت
الراهبة الستائر على كلتها رجاء أن يأخذها النعاس . وعاد
عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة فى المكان فعزا ذلك الى
نوم المريضة فخافت (١) من مشيته ودنا من سريرها وأزاح

(١) أى مشى على أطراف أصابعه

الستار فرأى على ضوء الساهرة (١) وجهها هادئاً وعينين لم
يرنقهما النوم ، فابتدرته قائلة : « انهم سينيمونها هنا
بجانبى على سرير صغير » . فعجب الطبيب من أمرها وظنها
تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة الأمر .
ثم عاد الى سرير المريضة . فقالت : « اذا تيقظت بنيتي
القيت عليها تحية الصباح ، واذا نامت صنع بى تنفسها
الهادىء ما لا يصنعه الدواء ، فأتجه الى العافية » . فقال
لها الطبيب : « يدك » فمدت يدها وهى تبتسم وتقول :
« ألا ترى أنى نجوت ؟ » فدهش الطبيب حين جس نبضها
ورأى الحياة تجري فيه جريانا . فقال : « انه من صنع
السرور الذى أدخله على نفسها الأمل بقاء بنيتها » ثم أوصى
بالسكوت وأمر بدواء يلطف من حدة الحمى اذا هى عاودتها
فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : « اذا أسعدها الطالع
برجوع مادلين فى الغد فقد نجت »
وكائن من سرور مسح من مرض ، وانه لسر من الأسرار
التى سيكشفها العلم فى مستقبل الزمان



ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب
النزل (بأراس) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه
الجواد الأبيض الى الاصطبل ثم عاد الى النزل وجلس فى
أحدى قاعاته وارتفق (٢) على منضدة وكان قد استوفى عمر
يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك
من صنعه ولكنه صنع القدر
ولو أنك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى .
ودخلت عليه فى هذه الأثناء ربة النزل ، وقالت : « أيرغب

(١) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القرابة عند العامة
(٢) اعتمد بمرفقيه

سیدی فی العشاء والنوم ؟ » . فأوماً اليها برأسه ایماءة
الرفض ودخل على أثرها غلام الاصطبل وقال : « ان جوادك
مكدود » فابتدره قائلاً : « أوليس في طوقه السفر غدا ؟ » .
قال : « انه لا يستطيع الحركة قبل يومين » . قال : « اين
مكتب البريد ؟ » فقيده اليه ، فأخرج جواز السفر وطلب
العودة الى مونترای سيرمير في نفس البريد الذي قدم معه
وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خالياً ، فأجيب
الى طلبه ودفع النفقة وأنذر بالسفر قبيل السحر
ثم غادر النزل وجعل يمشى في المدينة ويتنقل في طرقاتها
على غير هدى وكبر عليه أن يسأل المارة ، فعبر النهر
وخلص الى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل
فانوساً (١) فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف
والإمام كراهة أن يسمعه انسان ، ولما أمن ذلك سأله :
« اين دار المحكمة ؟ » وكان الرجل من ذوى الأسنان . فقال
له : « يلوح لى انك غريب فاتبعنى فان طريقى عليها » .
فانطلقا حتى اذا كانا على كشب من الغرض انشأ الفلاح
يحدثه : « ان كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على
أنى لا ازال أرى ضوءاً بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ،
فان كنت شاهداً فقد جئت في الوقت » . قال : « انما جئت
لاستشارة محام » . فقال الفلاح : « هالك الباب فاذا دخلت
فارق الدرج »

فمضى الرجل على ارشاد صاحبه فاذا هو في قاعة
فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم
يتهامسون ، وان رؤيتهم وهم في ملابسهم السوداء لما
تنقبض لها النفس ، فقل أن تخرج كلمة من أفواههم
يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجد ريح البر ،
فلا يكاد يسمع الا نعيها يؤذن بحلول العقاب

(١) الفانوس في الأصل النمام وقد استعمل للشمع لانه يتم عليه

فاذا مررت بهم حسبت أنك أمام خلية دونهها خلايا النحل - خلية تطن فيها العقول طنيناً حتى ليؤتى لك وقد اخذتك الوحشة أنك في معبد مظلم تعمده الأرواح . وكانت القاعة على ترامى أطرافها لا يضيئها الا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح أن يسأل أول محام لقيه : « فيم القوم ؟ » . قال : « قضى الأمر » . فارتاع وقال : « قضى الأمر ! »

نطقها بمرارة لفتت اليه المحامى . فقال : « العلك قرابة (١) له » . قال : « لا شأن لى ولا قرابة ، فهل حكم بالادانة ؟ » . قال : « استحال غير ذلك » . قال : « أترأه سجن الأبد ؟ » . قال : « نعم » . قال بصوت لا يكاد يسمع : « لقد عرفت اذن شخصيته » . قال : « أية شخصية ؟ لقد كان الأمر جلياً . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب ! » . قال : « أعن امرأة تتكلم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ما لهم وقد فرغوا من أمرها لا يزالون فى مقاعدهم ؟ » . قال : « انهم ينظرون منذ ساعتين فى شأن آخر » . قال : « وما عسى أن يكون ؟ » . قال : « مجرم عائد من أرباب السوائف وأضياف السجون لا يحضرنى اسمه قد أخذوه بسرقة جديدة ، ولعلمهم لا يتلومون فى الحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضياً لكفتنى النظرة اليه مؤونة التحقيق فى أمره » . قال : « ألا يتسنى لى الدخول ؟ » . قال : « ان القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فاذا عادوا الى النظر فربما تهيأ لك الدخول فى غمار الناس » . قال : « ومن أين أخلص إليها ؟ » . قال : « من ذلك الباب الكبير »

ثم غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكأن ابراً من

الثلج ونصلا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم
يدر أكان مأتاها الألم أم السرور . وجعل يقترب من الناس
وهم قنابل (١) قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : « ان هذا
الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وان لم تثبت عليه السرقة
فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه
وشهدت الشهود ، ولم يبق الا دفع المحامي ورد النائب
وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من
العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد أديب ينظم الشعر ويعرف
كيف يوفى الاتهام حقه » . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا
فسأله : « متى يفتح ؟ » فقال : « لا يفتح » . قال : « كيف
والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها » . قال : « قد
عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها » . قال : « الا
أجد فيها مكانا أصف فيه قدمي ؟ » قال : « لا » ، ثم
عطف قائلا : « ان خلف الرئيس مكانا أو مكانين لا يؤذن
بحلولهما لغير الخاصة » . ثم ولاه ظهره فنكس الرجل راسه
ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه في
حرب عوان ثم أخرج من جيبه بيضاء (٢) خط فيها :
« مادلين شيخ مونتراي سيرمير » ثم صعد الدرج وشق
الصفوف وأتى الحاجب وقال له بصوت الأمر : « احمل
هذه الى الرئيس » فأخذها الحاجب وألقى عليها نظرة عجلى
ومضى طائعا



منذ سنين سبع ومادلين نابيه الذكر قد اقترن اسمه
بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الأفق فجازت حدود بلده
الى ما جاوره من البلدان فتعاليم (٣) الناس فضله وأخصب

(١) جماعات جماعات

(٢) أى علم

(٣) أى ورقة بيضاء

به الزمان والمكان فتمت في عهده صناعة الخرز الأسود
وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى
حسد بلده عليه

وكان رئيس الجلسة في أراس ممن يعظمون مادلين
ويجلونه ، فلم يكذ يحمل الحاجب اليه رقعة حتى أذن له ،
فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته
وحتى تبين مادلين اعظامه في حماليق عينيه ، وقال له :
« ليدخل سيدى غير مأمور » ومشى أمامه مشية العبد القن
ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث له ثم مد له يده
برقعة الرئيس ، فتناولها واقترب من المصباح وقرأ على
ضوئه : « ان رئيس المحكمة بأراس يهدى تحية يمازجها
الاجلال الى الشيخ مادلين »

ثم تبع الحاجب فلم يلبث ان رأى نفسه وحيداً في قاعة
الداولة وكانت قاعة لا تسر النظر يضيئها شمعتان قد
نصبتا على منضدة أقيمت على بساط أخضر . وذكر قول
الحاجب عند انصرافه : « انك يا سيدى في قاعة المجلس ،
فاذا أدركت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت
نفسك في قاعة الجلسة خلف كرسى » ، ففعلت في نفسه
تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور في رأسه من
الذكريات المبهمة التى بعثها فيه ما صادفه في ذلك الممشى
وما مر به في تلك الدرج . وأوفت الساعة المرهوبة فحاول
أن يجمع أشتات نفسه فلم يفن شيئاً ، وتضعض في ساعة
هو أحوج ما يكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة
الأليمة . وكم قطع في مثلها سلك التفكير وملك على المرء
المذاهب ، فقد كان في الموطن الذى يجلس فيه القضاة
فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الأبله الى تلك القاعة
الساكنة المروعة التى يقضى بها على أرواح العباد . وكان به

وهو ينظر اليها أن اسمه سوف يدوى في جوانبها وأن المقدور
عليه سوف يحلق في سمائها

وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول :
« ترى ما هذه القاعة وترى من أنا ؟ » وكان قد طوى يوما وليلة
وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر الماء
ولم يحس جوعا ، ودنا من اطار أسود معلق على الجدار
فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطها جان نيكولا
(باش عمدة باريس) وأحد الوزراء ، رصد فيها أسماء
النواب والوزراء الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا
الى السجن ، ولو أن امرأ تفرس فيه لأدرك للوهلة الاولى
ان الرسالة قد أخذت من نفسه محلا ، على أنه قد قرأها ثلاثا
ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكر في فانتين وكوزيت
وانفتل وهو في تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة الباب
الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدمن اليه نظرا هادئا ثم
بان فيه الخوف ، ثم أطل من محاجره الفرع ثم تلاه الجزع
فندى بالعرق جبينه ، وأتى على أثر ذلك بحركة يخطئها
الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : « ما الذى
يحملك على كل هذا ؟ » ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب
الذى دخل منه فاندفع اليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة
الى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفة من
النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور
كأنها السواهر

فتنفس الصعداء وأصفى ، فاذا هو في سكون الرموس
فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى اذا غاب في أحشاء
تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ،
فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهره الى
الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقا
ولما وجد نفسه قائما وحيدا في جوف هذا الظلام نهبا



للبرد والهواجس جعل يفكر . على أنه قد فكر فحمة (١) الليل وسرارة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : « وا أسفاه ! » . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم أمال رأسه وأرسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع أدراجه . وجعل يمشى مشية المتشاغل كأن لاحقا لحق به في فراره فصدده عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل القاعة التي برحها وأخذ نظره قبضة الباب الذي يفصله عن قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحاس فجعل ينظر اليها نظرة الشاة الى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدري الى الباب وأهوى بيده الى القبضة فأدار زرها فاذا بالباب وقد انفلق عنه ، واذا به في قاعة الجلسة فخطا خطوة وأقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى في اثنائها انقباض في الصدور

وفي الجانب الذي وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شيء من الاكتراث ، عليهم أردية بالية ، وهم بين قارض لظفره ومغمض لعينه

وفي الجانب الآخر لفيف من الناس في أخلاق (٢) الثياب وقد نثر بينهم محامون في شتى الأزياء ومختلف الأوضاع وعلى ضواحيهم (٣) أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقدار وفوق أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها أجواخ صفراء كانت في ميعة صباها خضراء ، وحولهم أبواب قد طلاها تداول الأيدي بطلاء من القار ، تضيء لهم سرج من

(١) أي طول الليل والنهار (٢) الثياب البالية

(٣) أي بالقرب من اكتافهم ومنابهم ، أحراس جمع حرس



سرج الحانات قد علقت في مسامير مرشوقة في الحائط تبعث
من الدخان فوق ما ترسل من الأضواء
وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس اقيمت
فيه شمعة

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيّب يولد
في نفس الناظر شعورين من وقار واكبار ، شعورا بعظمة
المخلوق ، ومظهره القانون ، وشعورا بعظمة الخالق ، ومجلاه
العدل



وقف مادلين ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مصوبة
الى هدف واحد ، مقعد من الخشب بجانب باب صغير في
طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين
حارسين وشموع تزهّر
وكان هو الرجل ...!

رآه مادلين ولم يجشم عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه
على ميعاد . وقد خيل اليه أنه يرى فيه نفسه ولكن في
سن عالية ، وما كان الشبه بينهما قاصرا على السحنة ،
ولكنه كان في الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف وذلك
النظر الشرر الذي لا يفارقه القلق ، وتلك الأهدام البالية
التي كان يجول في أمثالها يوم دخل مدينة دنى يحمل في
نفسه ضبا من الضغن (١) ويخفي فيها ذلك الكنز الذي
اقتناه في أعوام سجنه

ذلك الكنز الذي جمعه على بلاط السجن من وحي الشر ،
لا من يتيمات الدر . فارتعد وقال : « اللهم غفرا ، اكذا تكون
العقبى ؟ » وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أو جازها يلوح
عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واستيحاش
ولما فتح مادلين الباب صر صريرا نبه القضاة ففسحوا له

(١) أي يحقد حقدا شديدا

مكانا ، ولفت الرئيس فحياءه ، وحياءه على أثره المدعى العام فلم يكذب يلمح تلك التحايا لأنه وقع في ذهول قد افترس طائر حلمه

قضاة وكتاب ، وشرط ، وجمع مشرئب الأعناق على ظماء الى الاستطلاع . انه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة ، وها هو ذا يشهده اليوم

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال ، ولكنه من صنع الحقيقة . قضاة وشرط وجمع من الأحياء قد ركبوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضي في أبشع ألوانها وأروع مظاهرها ، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح في أغوار نفسه ان هذا لن يكون ولعبت به الأقدار ، وأرته من تهاويلها ما زاد في خيال عقله حتى كاد يخالط فيه . فرأى كأن هناك رجلا قد شق منه ، وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير (جان فالجان)

ثم رأى ويا هول ما رأى رأى شبيه مسرح قد قام فيه شبيه بتمثيل أبشع أطوار حياته

وقد أخذت لذلك التمثيل عدته ، فكان يرى نفس المشهد في نفس ساعة الليل التي حكم فيها ، وكأن القضاة هم قضاة وكان الأحراس هم الأحراس ، والحضور هم الحضور الا أنهم رفعوا فوق رأس الرئيس صورة المسيح ، ولم تكن تزين قاعات الجلسات في عهد محاكمته ، فحوكم لشقوته في يوم لم تشهده عين المسيح

وسقط على كرسى كان خلفه سقوط الحجر ، فزعا من ان تقع عليه العيون . وأغيث بشبه عمود من الأوراق المقدسة فوق منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ أمنيته وجلس يرى من حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه



شيئا فشيئا حتى وضحت له الأمور على حقائقها ، وخرج من الدهول الى الرشيد

وكان همه ان يرى جافير فرمى بصره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، وأعانها ذلك الظلام الذي لم ترقق من حواشيه تلك السرج

وساعة دخل كان المحامي قد فرغ من دفعه وشهد الاسماع الى الاصغاء وقد مرت على فحاصمة المتهم ثلاث ساعات . والحضور يرون امامهم رجلا ينوء شيئا فشيئا بثقل ذلك الشبه الغريب الذي أوشك أن يحل في لباسه . ولقد كان الرجل مجهولا ، كان أحد أولئك البائسين الذين تنتشر على وجوههم طبقات من البله أو من تصنع البله ، فهو اما أن يكون من أشد الناس بلها أو من أوفاهم قسطا في الذكاء كان أفقيا قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة في بستان « بيرون » .

فيا ترى من هو هذا الرجل ؟

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجات من النور في ظلمات ذلك الأفق ، أفق التحقيق

وقال الاتهام اننا لم نقع على سارق هين الأمر ، يختلس الثمر ، أو أحد أبناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فار وقبضنا على شاطر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك « جان فالجان » الذي جد الشرطة في تعقبه منذ عهد طويل

ذلك الذي استوفى عمر العقاب في سجن تولون ، وقطع يوم سرح منه السبيل على غلام من سكان سافواي اسمه « بيتي فيرجي » وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وانا لنرجيء أخذه بها حتى يثبت لنا شخصه . . . وقد ركب هذا الفتاك جريمة جديدة فهو اذا ممن تعودوا الاجرام . فخذوه اليوم بجريمته الجديدة

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتهم أمام هذه التهمة وذلك
الاجماع من الشهود

وتبدر منه بوادر من الحركات والاشارات تأويلها النكران .
فهو وان خانه النطق ، أو تعصى عليه الكلام فقد قام في
جسمه من فرعه الى عقبه خطيب ينادى : أنى مأخوذ بجريمة
غري ، وآفتى في ذلك شبه غير ميمون

وقد وقف وقفة الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود
قد اصطفت للنزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته وأنشأ
القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد

وغبرت تمشى اليه التهمة على جسر من ذلك الشبه
المشئوم ، وكان قلق الجمهور عليه أشد من قلقه على نفسه
فلبثوا يتوقعون الحكم بالادانة ويطالعون له الموت من ثنايا
ذلك الحكم

فياترى من كان ذلك الرجل ومن أية طينة قد ركبت
تلك البلاهة ؟ اتنزل البلاهة بالناس الى هذا الحد ، أم كان
ذلك من صنع المكر والخداع . أترأه قد جاز حدود الذكاء
أم نزل الى أحط مراتب البله ؟

تلك أسئلة قد شطرت الحضور شطرين ، وسرت عدوى
ذلك الى المحكمين ، فقد كان من أمره ما يزعج وما يشغل
البال ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كان من
غموضه

جود المحامى في الدفع وتأنق ما شاء في تخير اللفظ وكان
يخطب بلغة الأقاليم ، وهى لغة قد الفتها المحاماة زمنا
طويلا تزعم أنها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها أجيالا
في باريز وفي ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم الى لغة
دراسية ولع بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة
وأشباههم . راقهم منها لفظ يرن في الأذن رنيناً يمازجه
الجد وأسلوب يمشى الى السمع مشية تصحبها الجلالة
فكانوا اذا ذكروا الزوج قالوا : «البعل» ، والزوجة قالوا :



« الحليلة » ، والملك قالوا : « « رب التاج والصولجان » .
واذا ذكروا باريز قالوا : « أم الفنون ومهد المدنية » .
فالمدعى العام فى لغتهم « خطيب الاتهام المصقع » ، والمرافعة
« الصيحات التى تسمعها المحكمة » ، وعصر لويز الرابع عشر
« العصر الكبير » ، والأسرة المالكة « دماء ملوكنا الكريمة » ،
والقائد « الجندى العظيم » ، وخطأ الصحف السيارة
« الكذب الذى تنفث سمه فى أنهارها » .

بدأ المحامى دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعب عليه أن
ير فيه بذلك الأسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك
(لبوسيه) نفسه ، فقد أرتج عليه وهو يؤبن ميتا عظيما
ففرع الى الاحتماء بوصف دجاجة سنحت له وخرج من
مأزقه ذلك بين التهليل والاعجاب خروج الظافر

أثبت المحامى أنه لم يقيم دليل محسوس على سرقة التفاح
لأن المتهم لم تأخذه عين وهو يظهر (١) الحائط ويعالج كسر
الفرع ، ولكنه فوجئ وهو يلتقط ذلك الغصين (وقال
الغصين بتصغير غصن ، تهوينا للأمر) واعترف بأنه وجد
مطروحا على الأرض فالتقطه ، ولم تأتونا بما ينقض ذلك ،
ولعل أحد السابلة قد مر بذلك البستان ، فتصور الحائط
واقترض ذلك الفرع ثم أحس خطرا فألقى به على الأرض ،
ونجا بحشاشة نفسه

لقد وقعت السرقة ولكن المتهم لم يكن بصاحبها. انكم قد
أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعودوا الاجرام ، (وفاته أن
ذلك الأمر الذى سلم به فى عرض دفاعه لم يبلغ فى التحقيق
مبلغ اليقين ، فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم) ثم مضى
فى دفعه ، وقال : « انه كان مقيما فى (فافرول) يرتزق
من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه (شان ماتيه) وأحسبهم
قد حرفوه الى (جان ماتيه)

ثم مر بشهادة الشهود مرا ولم يدفعها ، وكان يتكىء فى

(١) يتصور



اقواله على انكار المتهم حتى انتهى الى قوله : « فلو سلمنا انه هو « جان فالجان » ، فهل يقوم هذا دليلا على انه سارق التفاح ؟ ان هي الا قرينة من القرائن ، وما أبين ما بينها وبين الدليل القاطع . . لقد أساء المتهم الى نفسه بذلك الانكار المطرد ، فأنكر كل شيء - أنكر جرائمه وشخصيته وكل ما صوب اليه في ماضيه وحاضره ، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطف القلوب

نصح اليه المحامي أن يقلع عن ذلك الانكار ، فأبى وأصر وظن أنه يخرج من تبعة كل شيء اذا هو أنكر كل شيء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ، ومر به من صنوف البلاء في السجن وبعد السجن ما يبلى الذهن السليم ، على أن طريقته التي جرى عليها في الدفع عن نفسه لم تكن مبررة للحكم عليه

وختم المحامي دفعه بالتضرع الى المحكمين أن ينزلوه منزلة الفار من السجن لا منزلة المجرم العائد

ورد المدعى العام على المحامي ردا رقيقا وخشنا معناه . شأن أمثاله من المدعين ، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، وأخذ المتهم بنزول (١) محاميه عن التمسك بانكار شخصيته ، وسجل عليه ذلك النزول ، فأضاف الى الاتهام حجة قد دعمت من حججه ، وتدرج في قوله بلباقة حتى وقف على منبع الاجرام وأنحى باللوم على مجرد المدرسة الروائية من روح الشرف . وكانت اذ ذاك في فجر ظهورها وقد دعاها النقاد في الصحف بالمدرسة الجهنمية ، وعزى - وهو على شيء من الحق - جريمة (جان ماتيه) أو (جان فالجان) الى تأثير ذلك الأدب الخلاب الذي راع العقول وانتقل بعد أن قضى لبياته ونضبت مواد القول الى

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه ، فان التنازل لا يكون الا في ميدان القتال أو بين اثنين

« جان فالجان » نفسه ، فأفاض في وصفه افاضة كانت أشبه شيء بما جاء في قصة « تيرامين » ولم يكن لذلك القول مكان في تلك المأساة ، ولكنه أسلوب طالما لجأت اليه البلاغة القضائية

وما زال يقرع الأسماع بتلك القوارع حتى أدخل الرعب على نفوس القضاة والحضور ، ومر المدعى في رده بتلك الكلمات الخلافة التي استثارت في صباح المخاصمة حماس الصحيفة الوحيدة التي كانت تظهر في سماء تلك المقاطعة وكان مما قال في « جان فالجان » : « رجل شأنه ذاك طريد جوال . لا مرتزق له . تعود الأجرام ، ولم تفلح السجون في تقويم اعوجاجه وتنقية نفسه . فلقد جنى يوم خرج منها على الغلام « بيتى فرجى »

وقبض عليه بعد ذلك متلبسا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذي ظهره ، وفي يده ما سرق ، فأنكر التلبس والتسور والسرقة ، وأنكر حتى شخصيته وفي يدنا مائة دليل ودليل على ذلك ولا نريد سردها - دع أربعة من الشهود على رأسهم جافير كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته ، وثلاثة من أخدانه في الأجرام ، فكيف يدفع اجماعهم على معرفة شخصه ، ان هو الا رجل جامد الشعور ، غليظ الكبد

وقد كان المدعى يخطب والمتهم ملق بسمعه وقد ففر الدهش فاه ونال منه العجب مما يسمع - وكان يحرك رأسه يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجة الاتهام في تلك المواطن التي تعجز فيها البلاغة عن امساك سيلها ، فيتراعى بموجات من سب وتحقير ، كانت تلف المتهم لف العاصفة . وكان في حركات رأسه تلك ، ضرب من احتجاج فصيح في صمته بليغ في حزنه

وقد لفت المدعى القضاة الى ذلك الموقف موقف البله الذي اخذ المتهم نفسه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل

الرحمة ، فلم تجز حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يخبئه
في غور قلبه من خبث لا أمد له ، وختم قوله بطلب الجزاء
العادل . ثم وقف المحامي وهنا المدعى ، وأطرى خطبته التي
جازت حد الإعجاب ثم ألقى بكلمات حضرته وأخذ يتضعضع
حتى فقد كل تكأة له ، وحتى شعر كان الأرض تميد تحته
ميدانا

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأوما الرئيس الى المتهم
بالوقوف ، وسأله السؤال المألوف ، أعندك ما تقول ؟ فوقف
وهو يلعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع . فأعيد السؤال
وأظنه سمع في هذه المرة ، فقد رأى فهمه في عينيه وكان
كمن استيقظ من سبات

فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يحدق في الحضور
حتى وقفت عينه على المدعى العام ، فانفجر بالكلام انفجار
البركان ، وقد كان الكلام في فيه يكاد يقتل اقتتالا ، يستبق
الخروج بعضه البعض :

— كنت عاملا في صناعة النحاس في باريس لدى السيد
« بالو » وكان العمل شاقا . يعمل العامل طرفي النهار في
هواء طلق في أفنية البيوت ، أو حجر مستطيلة سقوفها من
الخشب ، ولا يتاح له أن يعمل مرة في مصنع مقفل لا يأذن
للهواء . فاذا كان الشتاء ووجد العامل منا مس البرد
وتخوف على أعضائه اليبس ، نزع الى تحريكها فترة من
الزمن التماسا للدفاء ، فيحفظ (١) هذا أصحاب المصنع
علينا ويقولون انه وقت ضائع . . وما ظنك بعامل يصهر
الحديد وهو على أرض من الثلج ؟ ان هذا الا فناء عاجل .
فترى العامل وقد أخلق كما يخلق الثوب ، ولبس في صباه
لباس الهرم
ولا يكاد يدرك الأربعين حتى تدركه السن فتنزف قواه

(١) يغضب



ويرغب عنه ويمسى سخرية لشرار العمال ، فينبزونه بأقبح الألقاب . فكانوا يدعوننى وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز العاجز

وكانت وظيفتى فى يومى ثلاثين صليدا . وما حط من أجرى فى دعواهم غير السن . وكانت لى ابنة تكدح هى الأخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدنا يفىء علينا بعصارة تمسك الحياة . تبذل يومها فى الكد ما تتقى المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها ، جائمة فى مهاب الانواء . وكان عليها أن تغسل ولو جهد الماء . . فان من الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فاذا أنس منها تريثا أو وجد تعللا ، عدل بالثوب الى سواها . فما فتئت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل بين الحار والبارد - دع ما كانت تعاني من مضارة زوجها لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء

ثم أمسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير أبج أجش ، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ، سلامة الضمير ونقاء الجنان

وقد انتابه فواق (١) كان يحبس أنفاسه ، فجعل يستعين على تأدية ما فى نفسه بحركات كنت تخاله معها خطابا يشق جذعا من الجذوع . وما كاد ينتهى حتى أغرب الجمهور فى الضحك ، فلبث ينظر اليهم وهو يجهل مشار ذلك - وما نشب ان فعل شرواهم (٢) وشاركهم فى ضحكهم ، فكان مشهدا مؤثرا تعلوه الكآبة . فصاح الرئيس وكان يقظا رحيمًا ، فذكر المحكمين أن السيد (بالو) الذى فزع المتهم الى شهادته لا يعلم له مقر منذ أفلس واختفى . ثم التفت الى المتهم وقال له : « أعرنى سمعك واعلم أنك فى موطن أنت فيه

(١) الزغطة

(٢) أى مثلهم



أحوج ما تكون الى التفكير ، فقد انصبت عليك الشبهات ،
وقامت حولك دلائل لا تلبث أن تجرّك الى سوء المصير .
فأجب اجابة صريحة عن أمرين : هل ظهرت حائط البستان
واقترضت فرع التفاح ؟ هل أنت جان فالجان ؟ »
فحرك رأسه حركة تعرب عن فهم ما ألقى عليه ، واتجه
الى الرئيس وقال :

« أما عن الأمر الأول » ثم سكت وألقى بنظرة على
قلنسوته ، وأخرى على السقف ، فحمى المدعى العام وقال له :
« ويل لك ! مالك لا تجيب على ما يلقي عليك ؟ ان اضطرارك
ليدينك فلست بجان ماتيه كما تحاول أن تكون ، وانما أنت
ذلك المجرم الفار جان فالجان . فقد ذهبت الى (افرون)
وولدت في (فافرول) وكنت بها مشددا للشجر ، وظهرت
حائط بستان ، واقترضت منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة
تقرير مصيرك »

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب
حتى اذا انتهى من خطابه استوى قائما وصاح به :
« ما أخبثك أيها الرجل ! وهذا كل ما أريد أن أقوله لك ،
وقد كان يعوزنى القول

« لست من السرقة ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب
ما يتبلغ به فى كل يوم . . اننى أتيت من (الى) فخرجت
أضرب فى البلاد غب سماء (١) وقد كسا الفيث وجوه الارض
ببساط من الرمل الأصفر ، هاجه الحاح السيل من بطون
المناقع (٢) وطمر به الزرع حتى ما تقع العين على غير أعواد
دقيقة من الحشائش على عطفي الطريق . وكنت التقطت
من الارض فرعا مهشوما به تفاح - التقطته وما كنت أدري
أننى التقط الشقاء . وقد لبثت فى السجن ثلاثة أشهر ،
وأنا أنقل من مكان الى مكان ، وهذا مبلغ ما عندى من القول

(١) أى عقب مطر (٢) المستنقعات



« انهم يرموننى بالتهم ويطلبون منى دفعها ، ويدفعنى الحارس على طيبة فيه الى الكلام ، يفرينى بذلك همسا ، وأنا لا أدري كيف أفصح عما فى نفسى . اننى لم أصب من العلم ولم يتقبنى مثقف ، فأنا فقير الادراك ، ولكنهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمرى

« أف لكم ! لقد ذهب بكم المكر الى حد القطع بمعرفة المكان الذى ولدت فيه . على أنى لا أزال أجهل مولدى وليس لكل من يهبط الى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تها ذلك للان العيش وطابت الحياة ، وأكبر ظنى أن والدى قد كانا من أولئك الذين يعيشون فى الطرقات والمسالك

« وجل ما أذكره اننى كنت أدعى وأنا حدث (بالصغير) واليوم أدعى (بالشيخ) ولا أعرف لى اسما غير هذين ، فأولوا قولى ما بدا لكم أن تؤولوا

« ولا أكذب الله فقد كنت فى (الافرون) وكنت فى (فارول) وليس من الحتم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون . لقد اعنتمونى بترهاتكم ، فعلام يتعقبنى الناس كما يتعقب الموتور واطره ؟! »

فاتجه المدعى العام الى الرئيس وقال :
« لقد أحكم المتهم تمثيل ما أخذ نفسه به من التبله ، يحاول ايهامنا أنه أبله ، ولكنه يعالج المحال بذلك الانكار ، واطن أن المحكمة لا ترى بأسا فى مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه »

فقال الرئيس : « انى أذكر المدعى العام أن جافير وهو كبير الشرطة قد دعاه عمل من أعماله فى المقاطعة المجاورة فأذنا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سماع المدعى وبصره والمحامى عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض »

فقال المدعى : « لم يغب عنى ذلك ولكنى أذكر المحكمين أن جافير قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال أثرها فى النفوس

وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته وانى ملق عليكم بما قال :

« لست فى حاجة الى اقامة البراهين المحسوسة او الادلاء بالحجج الملموسة ، فانى اعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بجان ماتيه) كما يزعم وانما هو (جان فالجان) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الأثيم - سرح من السجن بعد ان انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه

«لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظهر حائط بستان ، وأكبر ظنى أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة آواه فى مدينة « دنى » وأذكر أننى رأيته فى سجن تولون أيام كنت أقوم بعمل الشرطة هناك . فأتنا به أعرف من أمه التى ولدته »

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، والح المدعى على اثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على أحد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو الا أن غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين . واذا الحاجب ومعه حرسى من الأحراس يقودان (بريفيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الأشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر (١) عليه بأحد الأحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد

وكان (بريفيه) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليه سيما الأندال وترد عليك منه سحنة المتهاكين على ذات (٢) اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منه ما كابده فى السجن من الأذى حتى قال الموكلون به انه يريد (٣) ان يكون رجلا نافعا ، وأثنى المتصدقون على خلال تعبه

(١) أى استعان (٢) المادة (٣) أى يحاول



ولكن يجب أن نذكر أن ما ظهر من الانقلاب في طباع هذا المجرم إنما وقع في عهد العودة ، عودة البربون

فقال له الرئيس : « بريفيه ، أنك رجل قد ركبت من المنديات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وإن جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفر نفسك من الشرف والانصاف ، فحببتها مزقة منهما ، فأنا أستحلفك بما بقي في نفسك من ذاك الحياء إن كان له كما أرجو بقية ، وأريدك على أن تتبصر قبل الجواب في هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل وأخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا إذا بدا لك أنك تكن على الحق »

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : « انظر إليه واجمع أشتات ذكرياتك وانطق بوحى نفسك إذا كنت لا تزال مصرا على أن هذا الرجل لم يكن غير (جان فالجان) رفيقك في سجن تولون »

فأجاب (بريفيه) وقد ألقى نظرة على الجمهور : « اتى أول من عرفه فهو (جان فالجان) رفيقى في سجن تولون » دخل فيه سنة ١٧٩٦ وخرج سنة ١٨١٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وانى أراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان في السجن ساهى الطرف كثير الاطراق »

فأوما الرئيس إليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا وجىء بالشاهد الثانى (شنيل ديفيه) وكان لا يزال فى لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه إذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الأعضاء ، مضغوف الجسم قد ركبت فى رأسه عينان تقرأ فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه بـ (أنكر الله)



فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التي ألقاها على سابقه
و حين ذكره بما كان من ماضيه الذي سلبه حتى حق الحلف
رفع رأسه و حدق في وجوه الحضور
فقال له الرئيس : « ألا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل ؟ »
فقهقه الشاهد وقال : « كيف لا أعرف رجلا سلكت معه
في سلسلة واحدة بضع سنين ؟! »

وجيء بالشاهد الثالث « كوش باي » وكان مجرما قد
حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من (لورد) كان يرعى
القطعان في رؤوس الجبال ، ثم حال الى قاطع سبيل ، وكان
في معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها ، وهو من
اولئك الذين بنيت طبيعتهم بناء الضواري فنبذهم المجتمع
وقذف بهم في بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات
قاسية ، وألقى عليه قولا ثقيلا ، ثم سأل السؤال المعهود .
فأجاب المتهم : « هذا هو جان فالجان وكنا ندعوه لفرط
منته (١) بجان لجريك »

ففعلت تلك الشهادة فعلها في الحضور وزاد في أثرها
ذلك الوضوح الذي ألبسها لباس اليقين
فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على
المتهم ، ثم جعلت تشتد وتمتد كلما أقيت شهادة من تلك
الشهادات

وكل هذا والمتهم ملق بسمعه وهو ساهم الوجه سادر
النظر ، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك
عند انتهاء الشهادة رأسه ، ويقول على مسمع الحرس :
« شيء حسن » . فقال له الرئيس : « ما قولك ؟ » قال :
« شيء حسن ! »

فعلا الضجيج في القاعة وضج حتى المحكمون وقالوا :
« هلك والله الرجل ! »

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس الى السكينة .
وعلى اثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت
ينادى : « انظروا هنا ايها الشهود »

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصوت الجهر الذي
كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مصدره فاذا بهم يرون رجلا قد خرج من
صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب الى وسط
القاعة . وما هو الا أن تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى
العام وصاح لصياحهما عشرون صوتا : « السيد مادلين ! »
وما كان الا هو وقد اضاء وجهه المصباح المنصوب على
منضدة الكاتب ، فوقف وقلنسوته في يده . وهو في لباس
لم يتطرق اليه العبث

وكان اصفر اللون قد سرت به هزة وحال لون شعره فقد
دخل مدينة آراس وشعر رأسه ارمدا (١) فلم يكد يطوى بها
ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب الرجل في مدى ساعة
واحدة

فاشرابت الأعناق وتطلعت النفوس وشحذ الشعور
ومرت بأهل القاعة فترة من الحيرة ، وحق لهم أن يحاروا ،
فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، وراوا أمامهم رجلا هادئ
الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع في نفوسهم أن هذا الواقف
المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة

ولم يكن أجل حيرتهم طويلا فقد اتجه الرجل الى الشهود
وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : « اتذكرون هذا الوجه ؟ »
فعل ذلك قبل أن ينبس الرئيس بكلمة ، أو يتمكن
الحرس من الحركة

فبهت الذين شهدوا وانكروه بايماءة من الرؤوس .
ثم التفت الرجل الى المحكمين ، وقال : « سرحوا هذا المتهم
وخذوني فأنا جان فالبجان »

(١) أى بلون الرماد

فعلقت الأنفاس وأخذت القوم رجفات الدهش ثم علاهم
خشوع البلى ، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفرع
الأكبر ، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الأمور
وانتشرت على وجه الرئيس طبقة من العطف والحزن
معا ، فرمى المدعى بنظرة عجلى وهمس في آذان الجالسين
معه للقضاء ، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : « ابغوني
طيبا » وقال المدعى : « هذا السيد مادلين قد نزل به
ما نزل وأنا لنجد (١) له وجدا شديدا ، ونعلم أنه نبيل القدر
زكى المشاعر ، فاذا رأى الرئيس أن يأمر بحمله الى داره »
فابتدر مادلين الكلام وقاطع المدعى بصوت يمازجه
السلطان ، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفا ،
فقد وعاهها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه ،
وقد مر بها أربعون عاما وهى لا تزال فى آذان من بقى حيا
من أولئك الشاهدين :

« أشكر لك أيها المدعى ، فما أنا بمجنون كما تزعمون .
انكم على وشك أن تضلوا ، فسرخوا هذا المتهم وخذوني
فأنا المجرم الذى تنشدون
« وليس هنا سوى من ينظر بغير غطاء ، فهاكم الحقيقة
خالصة غير مشوبة »

« انى وقفت هذا الموقف لذات الله العلى ، وهو حسبى
فخذونى . فقد طببت بذلك نفسا
« انى أردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت ، وأصبحت
شيخا لمنتراى سيرمير ، وألقيت بنفسى بين الأخيار ، فلم
يفسخ لى الحظ بينهم مكانا ، فجئت وفى النفس أشياء
لا يسعنى سردها ، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام
توبتى فان الغد ببسطه كفى
« انى سرقت مولاى العابد وسطوت على ذلك الفلام



الصغير ، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك أثيم ،
وما كان له الخطء (١) كله وان كان من الخاطئين - وليس
لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصب نفسه
لناصحة الناس ، ولا أكذب الله ، فإن العار الذى عالجت
نضحه عن نفسى كان أمرا ادا

« ولا يفوتنكم فى هذا الموطن أن السجن قد كان لى شر
أستاذ ، فهو يخبث النفس ، ويمزق شمل الفضيلة ، ولقد
صدق من قال : « ان السجنون تخلق الأشرار »

« فلقد كنت قبله فلاحا قدما (٢) فأطلع منى السجن
شريرا ، وكنت عودا من الحطب ، فصيرنى شعلة ، ثم ردت
الى الرحمة ما سلبتني القسوة ، فنجوت بنفسى ، ولكن
بعد الفوت . فاذا دق عن أفهامكم ما ألقى الساعة عليكم ،
فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها
من ذلك الغلام

« واليك أيها المدعى أسوق الكلام ، انى ليعرض لى أنك
غير مصدق ، وأقرأ ذلك فى حركات رأسك ، فأناشدك الله
الا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! اليس هنا من يعرفنى ؟
انى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضرا لوضح الحق »



ليس فى طوق كاتب أن يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل
من نبرات الكآبة ورنات الأسى التى كانت تصحبها عبقة من
الحسنى . ثم انتقل الى الشهود الثلاثة ، وقال : « بريفيه
الا تزال تنكرنى ؟ »

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه ،
ومر الرجل فى كلامه فقال : « ياشانيلديوه ، ألسنت كنت
تدعى فى السجن بـ (أنكر الله) ؟ ولى فيك آية . . حرق بكتفك
اليمنى ، حاولت أن تمحو به الثلاثة الأحرف التى وسمت

(١) اللنب (٢) القدم الساذج

بها ، فلم يغن ذلك عنك شيئا ، وثبتت الأحرف في مكانها .
أرايتك ؟ ألم أقل حقا ؟ » ... قال : « بلى ! »

ثم تحول ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه
بسمة ما ذكرها رائيها ألا وجد لها غمزا على قلبه ، بسمة
قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط

فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة
تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح
أشرطا ولا مدافعين ، وقد أنسى كل غرضه : نسي الرئيس
أنه جاء للرياسة ، والمدعى أنه قام للاتهام ، والمحامي أنه
مثل للدفع ، والحرس أنهم أقيموا للحراسة ، فلم ينبس
خلق بكلمة ، ولم يفرع ذو سلطان الى سلطانه

ولا عجب فان للمشاهد السامية خواص تملك على رائيها
المشاعر وتحيل شهودها الى نظارة (١) يخرج بهم فرط ما هم
فيه عن حد الشعور ، فلا يكادون يتساءلون حتى في أنفسهم
عن مأتى ذلك اللأواء الذي يذهب سناه بأبصارهم ، فهم في
داخلهم مأخوذون برائع ما يشاهدون في خارجهم

وضح الصبح وتكشفت ظلمة الشك عن جان فالجان
فأنار ظهوره السبيل ، وكشف عن ذلك الحادث ، وأدرك
ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الأمر - أدركه بأسرع
من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء

رجل يفتدى بنفسه رجلا آخر - لله ما أنبل هذه النفس
ثم قال الرجل : « اننى لا أريد أن اطيل عليكم امد ما أنتم
فيه فقد عزمت على الذهاب لأنهم يأبون أن يأخذونى ،
وعندى ما يدعونى الى الرجوع ، والمدعى العام يعرف من
أنا ، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك »

قال ذلك وغبر يمشى الى الباب بقدم مطمئنة ، فما رفع
صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله - مشى وقد حل فيه

خفى من المنايا ما حل في انسان الا تراجعت امامه الصفوف
واصطف الوقوف

فلما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت الى المدعى وقال :
« انا رهن امرك » . وعطف قائلا :

« ايها الحضور ألا ترون انى جدير بالرحمة ، ولعلى كلما
فكرت في انى كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى
حقيقا بالفبطة »

ثم خرج فصفق (١) الباب كما فتح - ولا يعدم صاحب
العمل الجليل أن يجد له في المجتمع نصيرا

وعاد القوم بعد فترة الى أنفسهم ، فأمر المحكمون بتسريح
« جان ماتيو » فخرج وهو يقول في نفسه : « ما أشد
جنون هذا الناس ! فأنا لا اكاد أفقه شيئا من جميع ما مربى
في هذا الحادث .. »

« عود الى فانتين »

تنفس الصبح فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت الليل
كله ، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال
الامها صورا من وجوه السعادة بقرب طفلتها - فانتهزت
الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيب لها
جرعة من الكينا . وبينما هي عاكفة على عقايرها وقواريرها
وقد ألقى الشفق على الارض ضبابا يقصر فيه قاب العين ،
واذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح
. رأت مادلين وهو منها أدنى شيء ، فصاحت : « أسيدى
الشيخ أرى ؟ »

فقال : « نعم ، وكيف حال المريضة » قالت : « ليس بها
الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شرا » ، ثم أعلمته
علمها وقالت : « واو لا أن فكرة رفعت عنها لما طلع عليها
هذا الصباح ، فقد حملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها »

(١) صفق الباب أى رده

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه فقال لها : « أحسنت في تركها على زعمها » ، فقالت : « وما عسى أن تقول لها إذا رأيتك وحيدا ؟ » قال : « إن الله يلهمنا الجواب »

وكان الصبح قد وضح نوره ، فرأت الراهبة في مادلين ما راعها - رأت شعره الأرمم ، قد حال كله الى شعر أبيض . فصاحت به : « أى خطب نزل بك فشيبك ؟! » ثم وافته بمرآة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها في التحقق من الموت ، يضعونها على فم المريض فتكدرها أنفاسه ان كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة ، وقال : « حسن ... ! »

فجمدت الراهبة في مكانها وعطف مادلين قائلا : « اليس من الميسور أن أراها الساعة ؟ » فقالت : « انك لم تأت بطفلتها فخير لها الا تعلم بقدومك ، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك انما كان لذلك ، فتنجو المريضة من آلامها و تنجو نحن من نسج الكذب »

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : « أريد أن أراها الساعة فربما كنت عجلا » ، فلم تفتن الراهبة لما كان في كلمة « ربما » من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : « ليدخل سيدى وليعلم أنها نائمة »

فتقدم الى (١) الخادم باصلاح باب لم يكن مطمئنا في مكانه، كراهة ان تتأذى المريضة بصريه . ثم دخل مخدعها وهو يخافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فاذا هى نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخصا يبعث الأسى . وتلك آية ذلك المرض العضال التى طالما فجعت نفوس الأمهات السواهر على اولادهن الذين أبرم فيهم حكم الموت

(١) تقدم الى أى امر

وكان هذا التنفس الشاق يكدر ذلك الصفاء العجيب
المنبسط على وجهها - ذلك الصفاء الذي كان يبدل في نومها
من مرأى ذلك الوجه - وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض
وأمسست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة (وهي
البقية التي بقيت من جمال البكارة والشباب) لا تزال
تختلج فوق ذلك الطرف الساجي . وقد اهتز جسمها من
فرعها الى قدمها ، كأن أجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت
أن تنشر للطيران . حتى ليخيل للناظر اليها أنه يحس
ترويحها وان لم تقع عليها عينه

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يس منها - فهي
الى من يصوع (١) للطيران أقرب منها الى من ينهي للنزول
الى القبر

ألم تر الى الفصن كيف يضطرب كلما امتدت يد لقطف
زهرة - ألا يلوح لك أن ذلك الفصن كأنه يجود بنفسه وكأنه
يختلسها في آن ، فهو يعطى ويمنع في وقت معا ؟

كذلك الجسم البشري فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين
الساعة التي تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف (٢) الروح
وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الأنصاب
وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل
منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الأولى . وكان المنظر واحدا
في جميع وجوهه إلا أن شعره في هذه المرة كان قد عمه
الشيب

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها
كما ذكرنا واصبعه على فمه كأنه يأمر أحدا بالسكوت .
فتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العليل وهي تبسم :
« أين كوزيت ؟ »

(١) صوع أي تهيأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها في شعر الأعشى
في الجاهلية وفي شعر جرير في الاسلام فهي عربية بدوية ، قال الأعشى :
لما أمالوا الى الشباب أيديهم ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف



الذي يؤذن لي فيه برؤيتها . . على أن رؤية ابنتي لن تحدث
في نفسي ما تتوقع أنت حدوثه ، وغايتي أن أحدثها الساعة
بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صوراً بيضاء ولمحت
أناساً يتسمون لي - وها أنا ذا أستشعر العافية وأحمد الله
فقد مسح ما بي من الألم . ولكنني سألبث مكاني كأنني
مريضة امضاء لأمرك وارضاء لهؤلاء الأخوات المقيمات هنا ،
حتى إذا أنسوا مني السكينة وتيقنوا من ابلالي جاءوني
بابنتي «

جلس مادلين على كرسي بجانب السرير فحولت وجهها
إليه وهي تغالب كيد الألم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة
وتدعو القوم إلى تذليل المصاعب التي يقيمونها في طريقها
لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الإمساك
عن سؤال مادلين ، فألقت عليه ألف سؤال وسؤال :
« لعلها سفرة ميمونة

« لله ما أنبل نفسك فقد أنقذت طفلي
« خبرني بربك أكانت جلدة على المسير
« أتراها تنكرني عند اللقاء ، فقد طال عهدنا بي
« ان الأطفال كالأطياف لا يكادون يذكرون في يومهم ما رأوه
بالأمس

« ترى كيف كان لباسها وغداؤها في ذلك النزل
« لقد كانت تؤلمني ذكرى ذلك في أيام بؤسى ، أما اليوم
فقد أصبحت بفضل حذبك (١) عليها قريرة العين رخيّة
البال

« ألا يتسنى لي أن أراها الساعة
« ألا ترى أنها جميلة

« ألا تأذن لي برؤيتها ؟ وان لم تفعل فمن ذا الذي يأذن
لي سواك «

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : « ان كوزيت

(١) الحذب الحنان

قالت ذلك وما أخذها دهش ولا استخفها فرح ، فقد
كانت هي الفرح بعينه ، وعجيب أن يفرح الفرح
ألقت هذا السؤال : « أين كوزيت » وليس في نفسها
ظل للشك ولا في خاطرها جولة للقلق ، فألجم اليقين المتجلى
في ذلك السؤال ، لسان مادلين فلم يجر جوابا
ثم مرت في حديثها : « لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان
النوم ، وكانت عيناي تتعقبانك أنى سرت - رأيت كأنك كنت
محلقا في سماء من المجد يطيف بك نور سماوي . على أنى
أعاودك السؤال : « أين كوزيت ؟ » لم لم تنمها بجانبى حتى .
إذا ما فتحت عيني فتحتها على تلك الطلعة البهية ؟ »

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه على
أثر القائه . وأغاثه حضور الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله
بقوله : « اهدئي فان ابنتك هنا » . فبرقت عيناها بريقا
أضياء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلى معانى
التضرع الى الله وأحلاها . ثم صاحت : « الى بها » وكانت
تظن أنها لا تزال طفلة تحمل - وهم من أوهام الامهات
مبعثه العطف والحنان

قال الطبيب : « لم يحن الوقت فانك لا تزالين فى بقايا
علتك ، فلا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى أبليت جئناك
بها » . فقاطعته بحماسة : « لقد شفيت وأعيد عليك القول
أنى شفيت ، فيا لله ما أحقق هذا الطبيب فانه يريد أن يحول
بينى وبين ابنتى ! »

فقال الطبيب : « أرايت كيف غلب عليك الغضب ؟ وما دام
هذا شأنك ، فلا سبيل الى رؤيتها أو تملكى صوابك »
فطأطأت رأسها وتالت وفي صوتها رنة من الأسف : « انها
فتاة حقة أرجو ان تغفرها لى ، ولا تنزل أمرى على الجراءة عليك ،
عن حذرنى بما سبق . لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه
صادعة بأمر الرشد . فان كنت تخشى على مغبة اللقاء فأنا
صابرة مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت

مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فاهدئي واستري
ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال «

وكان سعالها يزحم دفاعه في حلقها كل كلمة من كلماتها
فلم تبد فانتين شيئا من التملل خشية أن تزلزل كل
آهة من آهاتها تلك الثقة التي تحاول بثها في نفوسهم ،
فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الألم
كل ذلك ومادلين ممسك بيدها ، ونفسه تكاد تسيل
جزعا

خرج الطبيب وبقيت الراهبة في مكانها وقد خيم عليهم
السكوت ، فمزقته فانتين بصيحة : « انى أسمعها . . انى
أسمعها » . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالاصغاء ، وعلقت
أنفاسها وجعلت تتسمع

كان في الفناء ولد يلعب — ولد البوابة أو ولد من شئت
من العاملات

تلك احدى المصادفات التي ما زال الانسان يجدها في
ثنايا الحوادث المحزنة ، كأنما هي جزء مما تهيئه يد الغيب
من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجيء وتجرى دفعا لفائلة
البرد وتلمسا للدفع ، وهى تضحك وتارة تغنى — وكذلك كان
واى شيء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من
لعب الاطفال

تلك هى الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها « كوزيت »
وصاحت : « تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها ! »

وانقلبت الصبية من حيث أتت وغاب صوتها ، فلبثت
فانتين فترة وهى ملقية بسمعها ، ثم فارق وجهها الاشراف ،
وقالت بصوت سمعه مادلين : « قاتل الله الطبيب فقد حال
بينى وبينك »

وبعد قليل عاودها أملها البسام ، فأنشأت تحدث نفسها
ورأسها مطروح على الوسادة :

« سنصبح من السعداء ، ويكون لنا بستان جميل ،
تمرّح فيه كوزيت وتجري على الأعشاب تطارد الفراش
فاذا شبت وبلغت سن التناول ... (١) ولكن متى تبلغ هذه
السن ؟ » ثم جعلت تعد على أصابعها ، وتقول : « انها
اليوم في السابعة من عمرها ، وبعد خمس سنين يكون لها
قناع أبيض ، وتبدو في هندام الفتاة !

« لله ما أحمقني فاني أفكر في الشيء قبل أوانه » ثم
أخذت تضحك . . وكان مادلين يصفى الى تلك الكلمات
وكانه يصفى الى هبات النسيم ، وقد غص بصره وغاص
فكره في تأملات لا قرار لها

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفع
رأسه فاذا بهما في صورة مروعة . وكانت لا تتكلم
ولا تتنفس ، وقد قامت في سريرها نصف قومة وبرزت
كتفها النحيلة من قميصها واصفار وجهها ، ووقفت
بنظرها على مشهد مروّع في الجانب الآخر من المخدع ،
واتسعت من الرعب حدقتها

فصاح مادلين : « ويلك ، ما بك ؟ » فلم تجب ولم تحول
بصرها ، ولكنها مست ذراعه باحدى يديها وأشارت اليه
بالثانية أن ينظر ورائه فالتفت ، فاذا به يرى جافير



واليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الاول
من الليل ، وانقلب الى النزل في الساعة التي تهيأ فيها البريد

(١) التناول المقدس أول حفل ديني تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها

للسفر ، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل
الصباح . وما هي الا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد
كتابا الى لا فيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين

ولما غادر قاعة الجلسة في أراس وعاد الحضور الى أنفسهم
وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من
ذلك المس ، وأصر على طلبه ، وقال ان هذا الحادث الغريب
الذى ستكشف الايام عن سره لم يزل من عقيدته ولم يغير
وجه التهمة المصوبة الى (جان ماتيه) . ولكن أقواله لم
تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من
يده فتلقفها المحامى واطرد له القول فقال :

— لقد انقلب الأمر رأسا على عقب ، وأصبح المحكمون
لا يرون أمامهم الا رجلا بريئا
وأخذ الرئيس جانب المحامى ، وانحاز له المحكمون
فسرحوا (جان ماتيه)

ولم يكن للمدعى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على
مادلين حين أفلتته (جان ماتيه) ثم كتب على المكان (١)
أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردد الرئيس بعض
الشيء ، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب للملكية
وقد كان مادلين ذكر أمامه يوما كلمة (الأمبراطور) ولم
يذكر بجانبها كلمة (بونابرت) فغاضه ذلك وحقد لها عليه .
وذكر له لشقوته تلك السالفة ، فهان عليه توقيع الأمر
وأبرد المدعى به بريدا خصيصا الى جافير بمنتراى
سيرمير وتقدم اليه بالاسراع ، وكان البريد فارسا فذهب
يعدو مرسل العنان

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته
كما قدمنا ، وعاد الى منتراى سيرمير واتفق أن هب من
نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطيا من حذاق



الشرطة فأنهى إليه الأمر ، ووقفه بكلمتين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير الى امضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه . ولو أن أحدا رآه وهو يلج باب الدار التي فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل ، لما قام بنفسه أن أمرا خطيرا قد حركه ، ولما تبين من وجهه غير لمحتة المألوفة (١) فلقد كان هادئ السعي ساكن النفس بادي الجد وهو يرقى الدرج

ولكن لو رآه في هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه ، لذعر من رؤيته . فقد كان زر بشيخته (٢) منحرفا الى جهة الأذن اليسرى بدلا من أن يكون محورا الى القفا وكانت تلك آية على هياج غريب في نفسه . فقد كان الرجل نظاميا في واجبه ولباسه الرسمي . فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان ، ولا في أحكام لباسه الرسمي وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له بالوقوع الا فورة في النفس ، كانت أشبه الأشياء بالزلزال في الارض

وكان قد اصطحب أربعة من الجند وكبيرا لهم ، وأمر سائرهم بالتربص في الفناء

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد في أن تدل عليه ، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع الباب دفعا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو أحسنا القول لقلنا لم يدخل . . . فقد وقف في حرم الباب ، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمي مطمئنة في عراها ، وقد علق في أثنائها يده اليسرى ، وكان

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملامح الوجه ولكن ملامح النظر
أي محل سقوطه

(٢) ياقة القميص



راس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو
بعض دقيقة ولم يشعر به أحد ، واتفق أن رفعت فانتين
عينها فلمحته وأنذرت به مادلين

وفي اللحظة التي التقى فيها النظران ، حال جافير وهو
جامد في مكانه الى صورة مفزعة !

وما من شعور بشري في نفس هذا الرجل هو أقدر على
التمثل في صورة الفزع من شعور الفرح ، وقد طغى عليه
فقد قلب سحنته الى سحناء مارد يريد أن ينقض على
طريدته . وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأي ،
قد فضح ما كان كامنا في نفسه وبسط على ظاهره ما كان
يضطرب في زوايا باطنه . وأصبحت الغضاضة التي كان
يجدها في نفسه حين أخطأ ترسيم الأثر ، ولم يصب الشاكلة
في أمر « جان ماتيه » وقد محاه زهو دخل في نفسه حين
علم أن فراسته لم تخطيء وأن شعوره لم يخنه في تعقب
جان فالجان . وتجلت في جبهته الكزة (١) دمامة منظره عند
ظفره ، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة في سحنة
بلفت منهاها

وفي هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعه الفلك وناجاه
الملك ، لا يشعر بحقيقة موقفه حق الشعور ، لكنه لم يخل
من شعور مبهم بنجاحه وضرورة الحاجة اليه
فقد كان يمثل في ذات نفسه تلك القوات العلوية من
العدل والحقيقة والنور ، وهي تعمل متساندة على سحق
قوة الشر

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان
والعقل ونفاذ الرأي والايمان باكبار حرمة القانون والقضاء
المبرم والقصاص الاجتماعي ، وكل ما في ذلك الفلك من قوة

(١) الكزة بتشديد الزاي الضيقة



ولا عجب فقد كان يحمي النظام ويستنزل صواعق القانون ، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة ، ويمضي القدر وينهض في المجد نهوضا . ولم يخل نصره وان كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح

وقف في أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية (١) دونها بهيمية البشر وما أخذته عين وهو يزاول أعماله المخيفة ، ألا أخذها من خلال ظلالها بريق سيف الاجتماع وهو يلمع في قبضته وكان يشعر بسعادة في استنكار ما يرى ، وقد وطىء باخمصيه هام الجرائم ، وقيد بعقبه العصيان والفساد والشرور ، وكان يتفجج نورا وهو يستأصل من الفساد والشر . . . وقد تجلت في تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة المنظر ، عظيمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس ، ولا طارت حوله دنية

ان الاستقامة والاخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثل الواجب ، كل أولئك الفضائل اذا حاد بها صاحبها عن قصد السبيل تراءت لك في صور منكرة ، ولكنها على نكرها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة

فاجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية ان لكل شيء آفة ، وآفة الفضيلة العدو بها عن القصد للمتعصب في دينه وهو في عنفوان فورته فرح شريف النزعة وان لم يعرف الرحمة ، يلزمه ما أدرى أي لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية اتباعا لأئمة الكتاب في الفلسفة والاخلاق والادب كابن جني وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت اذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال ان فيهما لفية وارجو أن تصبح لغة باذن الله



وكان جافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثى لها - وكذلك
الجاهل اذا فاز - فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه
الذى تجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طيب من خبيث



لم تكن فانتين قد لحت جافير منذ اليوم الذى انتزعها
فيه مادلين من يديه انتزاعا ، ولم يقو عقلها المضعوف على
ادراك شىء . غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشيانه
مخدعها . وكان أكبر ظنها أنه انما يريد لها . فخانها
العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر ،
واحست الحين ، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين
صيحة اليأس : « نجنى منه » . فأجابها بصوت يقطر سكينه
ورقة : « اهدئى أنت فانه انما جاء يريدنى »

ثم التفت الى جافير ، وقال له : « انى لأعلم ما تريد » !
وصاح به جافير : « اذن فهيا »

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الأحرف وطمست
على معالمها ، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام . ولم
يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث ،
ولم يعمد الى ابراز أمر الاستدعاء . فقد كان يعد جان
فالجان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام ، فلبث خمس
سنين يجالده ويصارعه ، فلم يقو على صرعه ، ولم يكن أمر
القبض بدء ذلك العراك ، ولكنه كان التختام - فما زاد على أن
قال له : « اذن فهيا » !

قالها ولم يخط خطوة ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة
كالمحجن (١) - تلك النظرة التى اعتاد أن يجذب بها اليه

(١) المحجن آلة يجذب بها الشئ كالخاطوف وغيره



جذب العنف أولئك المنكودين من البائسين - تلك النظرة التي نفذت الى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها ، فرأت مادلين بحيث كان ، فشد ذلك منها بعض الشيء ، ثم أجالت تلك المسكينة نظرا حائرا ، فلم تر في المخدع غير مادلين وغير الراهبة ، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها رأت في تلك اللحظة شيئا غريبا لم تكن لتراه حتى في عنفوان هذيانها ، رأت عينا (١) من الشرطة يلعب (٢) شريفا من سروات الناس ، والعين شامخ الأنف والشريف منكس الرأس . فخيل اليها أن الدنيا قد شمرت المزوال

وكان جافير قد أخذ في الحقيقة بتلايب جان فالجان فصرخت فانتين : « سيدى الشيخ » . فضحك جافير حتى بدت نواجذه ، وقال : « ليس هنا من ينادى بسيدى الشيخ » . فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح عن خناقه يد جافير ، ولكنه قال له : « جافير » ، فقاطعه جافير قائلا : « قل سيدى المفتش » ، فقال له : « سيدى ان لى معك كلاما »

فقال له : « ارفع به صوتك ، فكذلك أكلم » . قال : « انه رجاء » . قال له : « اجهر بصوتك كما أمرتك » قال : « انه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك » ثم داناه وألقى في أذنه : « أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية هذه المسكينة وأدفع لأصحاب النزل نفقة ايوائها ولك أن تصحبنى اذا شئت »

فقال جافير : « أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمقا » وسقطت تلك الكلمات الى أذن فانتين ، فاضطربت في سريرها وصاحت : « ويلاه أليست بنيتى هنا كما

(١) جاسوس (٢) يأخذ بتلايبه أو بخناقه أى يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا



يرعمون ؟ » . ثم صاحت : « أيتها الأخت أين بنيتي ، وأنت أيها السيد مادلين ؟ » . فضرب جافير برجله وصاح بها : « اياك ان تنبسي أيتها الشقية . أراني اليوم في بلد ينادى فيه المجرم بالقباب التسويد وتكرم فيه البغي كأنها من فضليات الحرائر » ثم نظر الى فانتين ، ويده تزيد في تضيق الخناق على جان فالجان ، وقال لها : « ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا سيد ، وإنما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى جان فالجان ؟ » فاستوت فانتين في سريرها وتنقلت بنظرها من جان فالجان ، الى الراهبة ، الى جافير ، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير ، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شيء حوله ، ثم هوت على الوسادة ، فصدم رأسها سناد الوسادة - وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح

فوضع جان فالجان يده على يد جافير ، وهي ممسكة بطوقه ، وبسط قبضتها ، وكأنها يد طفل ثم قال له : « لك الويل ، لقد قتلتها »

فصاح به جافير : « دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق ، فان لم تنطلق معي فليس الا القيد ، والا دعوة الجند »

وكان في إحدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح اليه الراهبات في السهر ، فاندفع اليه جان فالجان وانتزع في أقل من رجع البصر سناد الوسادة رغم رسوخه في مكانه ، وأى شيء يتعصى على تلك الساعة ؟ ثم اتخذ منه جنة وسلاحا ولوح به في وجه جافير ، فتراجع مذعورا الى الباب . ثم مشى به مشية المظمئن الى سرير فانتين ولما بلغه التفت الى جافير ، وقال له : « أنصح لك ألا تدانيني ! »

فأوجس جافير خيفة ، وبدأ له أن يذهب لدعوة الجند

لكنه خشي أن يجد جان فالجان نهزة للفرار فأسند ظهره الى عضادة الباب ، ونظره مصوب الى غريمه . فارتفق جان فالجان على قمة السناد ، وجعل يتأمل فانتين وهى هامة ولبت غارقا في تأملاته . وما كان ليفكر في شيء من أشياء هذه الحياة ، غير أنك كنت تقرا في معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة . ثم انحنى فوقها وجعل يسارها - ترى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل الممتحن لتلك المرأة الميتة

لم يقع ما قال في أذن الحى فهل وقع في أذن الميت . وما يدريك لعل في الأوهام المؤثرة شيئا من الحقائق السامية روت الراهبة سمبليس ، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فيما تروى - أنها قد رأت رأى العين اثناء تلك المسارة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا قد لمع في تلك الأحداق ، التى غمرتها دهشة أهل القبور . ثم أخذ في يديه رأس فانتين ووضع به برفق على الوسادة كما تضع الأم رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها ، وقد علا وجهها اشراق سماوى - والموت انتقال من عالم الظلمة الى عالم النور ولما فرغ من شأنها ركم أمام سريرها وتناول يدها فقبلها ثم التفت الى جafir وقال له : « دونك ما تريد » ! . .



سيقى مادلين الى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله فى انحاءها ، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم الى بعض يتساءلون . وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه ، وقطعوا باجرامه قبل أن يقع اليهم تفصيل ذلك الحادث بأراس . فمضى النهار وما تكاد تسمع فى مناحى المدينة الا هذا اللفظ :

ألا تدري ؟ - أنه مجرم سرح بعد العقاب - من هو ؟ -

شيخ البلد - ويحك ما تقول ؟ السيد مادلين ؟ - نعم -
لا تقل هذا - انه لم يكن يدعى مادلين - ان له اسما آخر ؛
لله ما أشنعه ، لقد كان يدعى ما أدري (بيجان) ! (جوان) !
- وهل اعتقل ؟

- نعم
- أفي السجن ؟

- في سجن المدينة ويتوقع نقله واشخاصه الى دارالمحكمة
ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد في عهده الاول
- انى لا أسكن الى هذا النبأ ، فقد كان الرجل طيبا
كاملا ، وكان من الزاهدين ، ألم تر كيف تأبى على وسام
الشرف يوم أنعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينك وهو يوالى
اسداء الحسنات ؟. فما سألته سائل الا أعطاه ، ولا مر بمعدم
الا نفحه ولا بمحزون الا واساه

- لقد كنت ألمح من وراء تلك الاعمال ماضيا غير محمود
وقالت عجوز من المشتركين (١) في « علم السلام (٢) » :
« لم يثر هذا النبأ فى نفسى حزنا على ذلك الرجل - ان فى
هذا لبلاغا لأولئك « البونابارتيين » (٣) »
وهكذا قد انمحي بين عشية وضحاها شبح مادلين من
الأذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها الا ثلاثة أو أربعة
منهم بوابته القديمة

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها
كأسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم
وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه ولم
يبق فى الدار غير الراهبة (بريتى) وأختها (سامبليس)
كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة

(١) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعا للأفصح قال
الله تعالى « وكانت من القانتين »
(٢) « علم السلام » جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد
(٣) نسبة الى نابليون بونابرت



وعند الساعة التي اعتاد فيها مادلين العودة الى داره قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتاح باب مخدعه وعلقته في مسمار مرشوق بالحائط ، ونصبت الشمعدان في مكانه المعهود ، كما كانت تفعل في كل مساء ، ثم أخذت في التفكير

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة . ومر بها ساعتان وهي على تلك الحال ، ثم عادت الى نفسها ولم تنشب أن صاحت :

« الهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح ؟ »

ووقع في نفس هذه اللحظة أن فتح زجاج النافذة . وامتدت يد من فرجته ، فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان . فرفعت عينيها وهي مفتوحة الفم وقد وقفت في حلقها صيحة .. انها تعرف تلك اليد ، ولا تنكر تلك الذراع ، ولم يكن كم ذلك الرداء عنها بالغريب

انه السيد مادلين - فمر بها بضع ثوان وهي معقودة اللسان - كما حكى عن نفسها وهي تروى ذلك الحادث - ثم انحلت عقده فصاحت : « سيدى الشيخ ! لقد ظننتك .. » ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدد منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذى كان لا يزال عظيما في نفسها

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال : « فى السجن .. نعم كنت فيه فكسرت احدى عوارض النافذة وهبطت من على سطح هناك ، وهأنذا كما ترين أعود الى مخدعى ، فاذهبي أنت الى الراهبة « سامبليس » وقولى لها انى فى حاجة اليها ! » فانطلقت العجوز تعدو ، ولم يوصها بشيء ، فقد كان يعلم انها عليه أحرص منه على نفسه

ولا يعلم خلق كيف خلص هذا الرجل الى ذلك الفناء ، وهو لم يعمل فى الباب الكبير مفتاحا

لقد كان يكون معه المفتاح (القلابة (١) الذى يستخدم لفتح أبواب الجوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين عند دخوله فى السجن وينزع منه ما يحمل من أداة . فهل عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح - لقد لبث هذا الأمر غامضا

صعد فى الدرج الى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا ، وفتح المخدع بلا تخرج فصر الباب صريرا ، ولكنه لم يباله ، وولج فى الظلام

وجعل يتقرى يديه ويتلمس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم اغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأثار المخدع وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيلة فقد كانت النافذة مطلة على الطريق . ثم ألقى نظرة عجل على ما فى ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام ، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غير قطعة الغلام وقد أسودت من النار وغير بقايا عصاه

فأخذ وريقة بيضاء خط فيها هذه الكلمات : -

- هاكم بقية عصاى وقطعة الغلام الفضية التى ذكرتها أمام المحكمة

ثم لفهما فى تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل

ولف بقايا الشمعدانين فى خرقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسا . وكان يمضغ كسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فتاة على بلاط المخدع ، وجده المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه

طرق عليه الباب فأذن للطارق ، فدخلت الراهبة

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذى يفتح جميع الأبواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد . فكلمة قلابة تفيد أنها تقلب السنة جميع الاقفال

« سامبليس » وهى صفراء اللون محمرة الخدق
ولا يسلم المرء وان كان جلدا صبوراً من أن يتسرب اليه
الوهن أمام بأس الأقضية والمقادير
وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الراهبة
الى طبيعتها من الضعف والخور فجزعت وبكت ، وكذلك
تبكى النساء

فمد لها جان فالجان يده بورقة ، وقال لها : « أيتها
الأخت أرجو أن تحملى هذه الورقة الى القس » وكانت
الورقة مطوية ، فألقت عليها الراهبة نظرة ، فقال لها :
« لك أن تقرئى ما فيها »

فقرأت : « أرجو سيدى القس أن يقوم على ما خلفته
هنا من المال ، وأن ينفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا
اليوم ، وأن يرصد ما تبقى للفقراء والمساكين
حاولت الراهبة أن تنطق فخاها النطق ثم تمكنت بعد
الجهد من أن تقول :

« ألا يريد سيدى الشيخ أن يتزود من تلك البائسة
بنظرة الوداع ؟ »

فأجاب مادلين : « انهم على أثرى وربما أدركونى هناك
ففكروا عليها صفو نومها الأبدى ! »

وما هو الا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على
الدرج . وسرى اليهم صوت البوابة وهى تقول :

« أقسم بالله أن أحدا لم يدخل ، وأننى لم أرم مكانى
من الباب بياض النهار وسواد الليل » وسمعوا صوت رجل
يقول : « وما هذا النور بالمخدع ؟ » ، فعرفوا منه صوت
جافير

وكان باب المخدع يوارى عند فتحه الزاوية اليمنى من
ذلك المكان فأطفا جان فالجان شمعته واختبأ فى تلك الزاوية
وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة ، وفتح
الباب وظهر جافير على العتبة ، وجعلت الراهبة تصلى

وكانت قد نصبت شمعتهما على المدفأة ، فلمح جافير على
ضوئها الضئيل تلك المصلية ، فسمّر في مكانه
وجافير كما تعهد ، بما بنى عليه طبعه وبما كسبه من
البيئة التي يعيش فيها والمضطرب الذي يتقلب فيه ، كان
على جانب عظيم من اكبار السلطة في شتى مظاهرها . فهو
يعظم سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين ، وينزل
الراهب منزلة المعصوم من الخطأ ، والراهبة منزلة المعصومة
من الخطيئة

تلك أرواح مسورة في هذه الدنيا بسور له باب واحد ،
لا يفتح الا لتخرج منه كلمة حق
ولما لمح جافير الراهبة ، هم عند الوهلة الأولى بالانصراف
ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم
أنها امرأة صدق ، ومكانها من نفسه مكانها : « أيتها الأخت ،
هل أنت وحدك في هذا المخدع ؟ »

فرفعت عينها ، وقالت : « نعم » . فقال جافير :
« أعذريني على هذا الالجاج .. ألم ترى رجلا في هذه
الليلة ، فاني أتعقب مجرما يدعى جان فالجان قد فر من
السجن » . قالت : « لا ! »

فانحنى جافير وسلم ، وعاد من حيث أتى وهو بها اوثق
ما يكون

كذبت الراهبة ثم كذبت : كذبت مرتين على التعاقب
ايه أيتها العذراء الطاهرة . انك لم تكوني من أبناء
دنيانا .. وقد مر بك سنون وانت تلابسين الطواهر من
أخواتك العذاري ، والأطهار من أخوتك الملائك ، ولسوف
تسألين عما جرى على لسانك من الكذب، ولكن في دار النعيم
وبعد هذا الحادث بساعة أو شيعها (١) رؤى رجل يهرول
بين الشجر ، وقد ركب طريق باريس ولم يكن غير جان فالجان

(١) قريبا منها

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به ، ولعله
رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام
وقد آن لنا أن نشيع فانتين بكلمة :
« ان لنا أما واحدة

« هى الأرض
« وقد رجعوا فانتين الى أمها . . . »
وقال القس :

« ليس من البر أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن
تلك البقى ، ولكن البر أن أرصده للنفقة على الفقراء
والمساكين »

ثم تجوز (١) فى دفن تلك البائسة وألقى بها فى مقابر
الصدقة ، فاختلطت عظامها بذلك الرفات : رفات من سبقها
ومن يلحقها من الأموات

وغابت فى غياهب تلك الحفرة التى لم تكن لأحد وهى
لكل أحد

وذهبت روحها الى مقرها ومستودعها . وسبحان من
يعلم وحده أين ذلك المستقر
وهذا أنيمنت فانتين فى ظلمة تلك الحفرة ، وانطوت فى
رماد تلك الأمشاج ، فكان لحدها أشبه شئ بسريرتها

